أنطوانيت



تأليف

رومان رولان

ترجمة

تور رؤوف كامل

مراجعة

تور عبد العزيز الأهواني

الألف كتاب (١٩٤)

أنطوانيت

بإشراف إدارة الثقافة العامة
بوزارة التربية والتعليم بمصر

الألف كتاب (١٩٤)

أنطوانيت

لرومان رولان

ترجمة
الدكتور رؤوف كامل

مراجعة
الدكتور عبد العزيز الأهواني

ملتزم الطبع والنشر
مكتبة نهضة مصر ومطبعتها
الفجالة - القاهرة

مطبعة نهضة مصر
الفجالة - القاهرة

هذه ترجمة كتاب

ANTOINETTE

تأليف

ROMAIN ROLLAND

آل جانان أسرة من تلك الأسر الفرنسية العريقة التى استقرت منذ قرون فى بقعة واحدة من الريف ، نقية من كل خليط أجنبي . . وفى فرنسا من هذه الأسر عـــدد أكثر مما يظن ، على الرغم من التغيرات التى طرأت على المجتمع ، تلك الأسر لابد لها من انقلاب جد قوى لانتزاعها من تلك الأرض التى تربطها بها عدة روابط عميقة تجهلها هى نفسها .. لم يكن للمنطق دخل فى هذه الروابط ، ولا للمصلحة إلا فى القليل ، أما من ناحية العاطفة التى تثيرها الذكريات التاريخية فهذه ليست بذات أهمية إلا عند بعض الأدباء . والذى يوطد هذه الروابط المتينة التى لا تقهر ، هو شـــعور غامض قوى مشترك بين أبسط الناس وأذكاهم ، بأنهم ـــ منذ قرون ـــ قطعة من تلك الأرض ، يحيون حياتها ، ويتنسمون عبيرها ويسمعون ضربات قلبها مع قلوبهم.. كأن الناس والأرض شخصان متجاوران ، راقدان على مهد واحد ، فهم يشعرون بخلجاتها الخفية ، ويحسون بأدق الفروق بين الساعات والفصول والأيام الضاحية منها والغائمة . . وكذا صـــوت الأشياء وسكونها. ولعل أجمل البلاد وأسعدها حياة ليست هى التى تأسر القلب أكثر من غيرها ، وأنما هى البلاد الأقرب إلى البساطة والتواضع التى تدنو من الإنسان وتحدثه بلغة ودية مألوفة .

هكذا كانت تلك المقاطعة فى وسط فرنسا حيث عاش آل جانان : بلاد مستوية ، رطبة ، ومدينتها قديمة ناعسة ، تشاهد شكلها السأمان منعكسا على مياه آسنة لقناة راكدة ، وحولها حقول رتيبة ، وأراض محروثة ومراع وجداول ماء وغابات .. ثم حقول رتيبة .. مامن منظر جذاب ولا بناية أثرية ولا تذكار،ما من شىء وجد ليجتذب الإنسان إليها ولكن كل شىء وجد ليربط الإنسان بها . وكان فى هذا الفتور وهذا الخمود قوة دفينة، والإنسان الذى يتذوقها للمرة الأولى لابد أن يكابد الشدة فيها ويثور عليها . أما ذلك الذى تطبع بطباعها منذ أجيال عديدة فأنه لا يمكنه أن ينفصل عنها لأنه امتلأ بروحها . وهذا السكون فى كل شىء ، وهذا السأم المنتظم ، وهذه الرتابة ، كل هذه الأشياء فيها جاذبية بالنسبة له وفيها لذة قوية لا يدرك الإنسان مداها ، فهو يسخر منها ولكنه فى نفس الوقت يحبها ولا يمكنه أن ينساها .

فى هذا البلد عاش آل جانان دائماً . ويستطيع الإنسان أن يتتبع تاريخ هذه الأسرة ، فى المدينة وضواحيها إلى القرن السادس عشر : لأنه قد وجد — كما يحدث ذلك كثيراً — واحد من شيوخ العائلة قد كرس حياته لترتيب نسب هذه السلالة من أناس صغار مغمورين ، ولكنهم مجدون ، من فلاحين ومزارعين وأصحاب حرف ، ثم كتبة وموثقين فى الأرياف ، ثم أناس استقروا آخر الأمر فى مركز من مراكز المقاطعة. وفى هذه البلدة أخذ أوجستان جانان، والد جانان الحالى ، يزاول عمله فى لباقة كبيرة كصير فى . كان رجلا ماهرا ماكراً مثابراً كالفلاح، وكان — على أى حال — فاضلا — ولكن دون تزمت ، مجدا فى عمله ،متجاوبا مع الحياة. وقد جعلته سذاجته الماكرة وحديثه الصريح ، ثم ثروته ، جعله كل ذلك محترما مهابا فى منطقة تمتد عشرة فراسخ حول بلدته . كان قصيرا مكتنزاً ، مفتول العضلات ، له عينان تشع منهما الحيويه فى وجهه الأحمر الضخم الذى تبدو فيه آثار جدرى. وقد جعل الناس ، فيما مضى ، يتحدثون عنه كشاب يجرى وراء الحسان ولم يفقد بعد هذه الهواية تماما . كان يحب المرح بما يتخلله من إباحية ويحب أيضاً الأكل الطيب . . ولیتك تراه على المائدة يواجهه إبنه انطوان — وهو يتحداه فى الأكل والمرح — ومعهم بعض الأصدقاء القدامى من نوعهما كالقاضى والموثق وكبير كهنة الكنيسة : (وكان جانان

العجوز لا يتورع عن أن يتهجم على القساوسة ولكن كان فى مقدوره أيضا أن يجلس معهم على مائدة الطعام إذا كانوا ممن يأكلون جيدا) أشخاص أقوياء محكمو البناء من طراز سكان رابليه وهناك على المائدة شرر متلاحق من الفكاهات الجريئة . وضربات أيد على المنضدة ، وضحك صاخب . . وكان صدى ذلك المرح يصل إلى الخدم فى المطبخ وإلى الجيران فى الشارع فيشتركون فيه

ثم أصيب أوجستان العجوز بذبحة صدرية فى يوم صائف شديد القيظ ، عندما شرع فى النزول إلى قبو المنزل ـ وقد شمر ذراعيه ـ ليعبىء نبيذه فى زجاجات . . وفى ظرف أربع وعشرين ساعة كان قد انتقل إلى العالم الآخر الذى لم يكن يؤمن به على الإطلاق . ارتحل مزوداً بكل اقداس الكنيسة ، كأى برجوازى ريفى أصيل مؤمن بأفكار فولتير يستسلم للسر المقدس فى آخر لحظة حتى لا تضايقه النساء ، ولأن الأمر سواء لديه ، ثم أنه لم يكن يستطيع الجزم بما سيحدث بعد ذلك .

وخلفه إبنه انطوان فى أعماله . وكان رجلا قصيراً بديناً أحمر الوجه ، بارق الأسارير ، حليق الذقن ، تاركا شعر عارضيه يمتد على خديه . . كان متسرعا فى كلامه ، متلعثما ، كثير الضوضاء ، يكثر من الإشارات القصيرة التى تملؤها الحيوية ، لم يوهب ذكاء أبيه فى الشئون المالية ولكنه كان صالحا لإدارة الأعمال ، إذ لم يكن عليه إلا أن يتابع

ـ فى هدوء ـ تلك المشروعات التى بدأت والتى كانت آخـذة فى النمو لمجرد مرور الزمن عليها . وقد اكتسب فى البلدة شهرة باعتباره رجل أعمال ، وإن لم يكن فضله فى نجاح تلك الأعمال كبيرا ، إذ لم يكن لديه سوى الجد والانتظام . وكان رجلا شريفا غاية فى الشرف فضلا عن أنه كان يبعث فى كل مكان شعوراً بالتقدير الجدير به . وكانت معاملته للناس تمتاز باللطف وعدم الالتواء ، وربما كان فيهـا كثير من رفع الـكلفة فى نظر البعض . ومع أنهـا كانت تعبر عن مشاعره أكثر من اللازم وأنها عامية إلى حد ما فإنها جعلته يتمتع بحب شعبي يبشر بالخير فى مدينته الصغيرة والقرى المحيطة بها. وهو ـ وإن لم يكن مبذراً فى ماله ـ إلا أن انطوان كان ذا شعور فياض ، تترقرق عيناه بالدموع فى يسر ويثيره منظر البؤس إثارة صادقة تجعل البائس نفسه يتأثر بها .

كانت السياسة تشغل من تفكيره حيزاً كبيراً ، شأنه فى ذلك شأن أغلب رجال المدينة الصغيرة ، وكان جمهوريا معتدلا ، شديد التحمس فى أعتداله ، حراً شديد التعصب لحريته ، وطنياً يكره رجال الدين ـ كأبيه ـ كراهية بالغة . كان عضوا بالمجلس البلدى وكان يسره ويسر زملاءه أن يقوموا بعمل مضحك ضد قسيس القرية ، أو واعظ الصيام الذى كان يثير الحماس بدرجة كبيرة بين سيدات المدينة . ويجب إلا ننسى أن هـذا الـكره لرجال الدين فى المدن الفرنسية الصغيرة كان دائماً ـ قل ذلك أو كثر ـ سبباً من أسباب الشجار العائلى ، الذى يتمثل تمثلا

خفياً فى ذلك العراك الصامت العنيف بين الأزواج والزوجات ، ذلك العراك الذى لا يخلو منه منزل تقريباً .

وكان انطوان جانان يدعى المقدرة الأدبية أيضاً وكان ـ كالريفيين أبناء جيله ـ يتغذى بالأدب اللاتينى الكلاسيكى الذى كان يحفظ منه ـ عن ظهر قلب ـ بعض الصفحات وكثيراً من أمثال لافونتين وبوالو . بوالو صاحب كتاب الفن الشعرى وصاحب كتاب اللوتران ـ خاصة ، كما كان يحفظ لكاتب « العذراء » ولصغار الشعراء فى القرن الثامن عشر ـ ثم أخذ يجتهد فى أن ينظم شعراً على منوالهم . ولم يكن هو الوحيد بين معارفه ممن إستهوتهم هذه المسألة التى ازدادت بها شهرته . وكانت تروى عنه فكاهات شعرية ورباعيات ومقطوعات وشعر تهكمى وأغان بعضها جرىء ، لاتنقصها روح المرح ولم يفته كذلك أن يتحدث عن أسرار الطعام الشهى فى منظوماته . فإله الوحى فى مقاطعة اللوار كثيراً ما كان ينفخ فى بوقه ليتغنى على طريقة داتى الشهير .

هذا الرجل القصير القوى ، المرح ، النشيط ، تزوج فتاة ذات طباع تخالف طباعه تماما هى ابنة قاضى البلدة واسمها لوسى دى فيليه . وآل دى فيليه ـ أو بالأحرى دفيليه (فى كلمة واحدة) لأن اسمهم كان قد انشطر شطرين على مر الأيام ـ كما تنشطر الحصاة عند انحدارها ـ كانوا قضاة كابرا عن كابر . وهم ينتمون لذلك الجنس القديم فى العنصر البرلمانى الفرنسى ممن كانت لديهم فكرة سامية عن القانون والواجب

---

(١) فولتير .

وآداب اللياقة الاجتماعية ، كما كانوا يتمسكون بالكرامة الشخصية ولاسيما المهنية ، محصنين بنزاهة مطلقة على طريقة برودوم . وفى القرن الماضى كانوا قداحتكوا بمذهب الجانسينزم الثورى فورثوا عنه ذلك الشعور بالاحتقار للعقلية الجزويتية إلى شىء من التشاؤم وقليل من التذمر فى نفس الوقت . لم يروا الحياة على صـــورتها الجميلة ، وبدلا من أن يسووا مشكلاتها التى كانت تصادفهم كانوا على استعداد لإضافة مشا كل أخرى إليها حتى يحق لهم الشكوى . وكان للوسى دى فيليه بعض هذه الطباع بينما كان زوجها على عكس ذلك متفائلا دون أن يكون مسرفاً فى تفاؤله . وكانت طويلة تزيد عليه بمقدار الرأس ، نحيفة ممشوقة القد ، تعرف كيف تلبس ولكن فى أناقة غير مكتملة مما جعلها تظهر دائماً ـ وكأنها متعمدة ـ أكبر سناً من حقيقتها . كانت ذات فضائل أخلاقية عالية ولكنها كانت صارمة مع الناس إذ لم تكن تتسامح معهم فى الغلطة الواحدة ولا فى أيسر انحراف ، مما جعل الناس يعتقدون فيها البرود والإزدراء . كانت ورعة جداً ، وكان هذا الورع سبباً فى المناقشات المتصلة بين الزوجين ، ومع ذلك فقد كانا متحابين جداً. ومهما وقع بينهما من نزاع فلم يكن أحدهما ليستغنى عن الآخر . لم يكن أحدهما واقعيا أكثر من الآخر . أما هو فكانت تنقصه الخبرة بنفسيات الناس (كان معرضاً نفسه لأن يخدع دائماً أمام الوجوه الطيبة والكلمات المعسولة) وأما هى فكانت تنقصها تماما الخبرة فى شئون الأعمال (إذ أنها ظلت دائما بعيدة عنها ولذلك لم تهتم بها)

(١) مذهب مسيحى متطرف ظهر فى القرن السابع عشر .

وكان لهما طفلان : فتاة تسمى « أنطوانيت » وصبي يسمى « أوليفييه » . وكانت أنطوانيت تكبر أخاها بخمس سنوات .

كانت أنطوانيت جميلة سمراء ، ذات وجه مستدير فرنسي رشيق ، فى ملامحه براءة ، لها عينان تشع منهما الحيوية وجبهة ناتئة وذقن دقيق وأنف صغير مستقيم كما يقول فى لطف رسام فرنسى قديم : « من تلك الأنوف الحادة النبيلة المتناهية فى الجمال ، تجد به خلجة طفيفة لا تكاد ترى — تعطى ملامحها حيوية وتدل على الحركات التى تدور فى نفسها عندما تتكلم وعندما تنصت، وهى تدين لأبيها بالمرح وعدم الاكتراث .

أما أوليفييه فقد كان أشقرا رقيقاً ، قصير القامة كأبيه وإن كانت طبيعته تختلف عنه تماما . أما عن صحته فقد تعرض أثناء طفولته لأمراض شديدة مستمرة . وبالرغم من أن هذا جعله مدللا من قبل ذويه فإن ضعفه الجسمانى جعله — فى سن مبكر — صبياً خيالياً يميل إلى الحزن قليلا ، كما جعله يخاف الموت ، غير مسلح أمام الحياة . كان يظل وحيداً ميالا منه للوحشة والانفراد يهرب من اجتماعات الأطفال الآخرين ، إذ كان يشعر بعدم الارتياح معهم . كان يكره لعبهم وشجارهم ويشمئز من عنفهم ويدعهم يضربونه لا لنقص فى شجاعته ولكن بسبب الخجل إذ كان يخاف الدفاع عن نفسه كما يخشى أن يؤذى أحداً.

ولولا أنه كان يحتمى بمركز أبيه لقاسى من زملائه عذاباً نكراً .

كان رقيقاً ذا حساسية مرهفة لدرجة المرض ، فإن كلمة أو لمحة عطف أو عتاب توجه إليه كانت كفيلة بأن تجعله يجهش بالبكاء ، مما دعا أخته — وهى تفوقه صحة — تسخر منه وتلقبه « بالنافورة الصغيرة » .

وكان الطفلان متحابين من كل قلبيهما ، ولكن الاختلاف البين فى طبعهما كان يجعل من الصعب عليهما العيش معا . فكان كل منهما يسير فى ناحية وراء أحلامه وخيالاته . أما عن أنطوانيت فكانت تزداد جمالا كلما كبرت ، تعرف ذلك بنفسها وتسمعه بأذنيها ولذا كانت سعيدة . وأخذت تنسج لنفسها روايات عن المستقبل . أما أوليفييه ، ذلك النحيل الحزين فكان يشعر فى دخيلة نفسه دائماً بأن المجتمع الخارجى يخدشه كلما اتصل به ، ولذا كان يلجأ إلى عقله الصغير المحدود يقص لنفسه شتى القصص ، وكان فى حاجة أنثوية ملحة إلى أن يكون محبا ومحبوبا . وبما أنه كان يعيش وحيداً بعيداً عن أولئك الذين فى سنه فإنه اصطنع لنفسه صديقين أو ثلاثة سمى الأول « جان » والثانى « ايتيين » والثالث « فرانسوا » . وكان دائما معهم وكذلك كان غائب الذهن عمن حوله . وفى الصباح عندما ينتزعونه من سريره كان ينسى نفسه تاركا ساقيه الصغيرتين العاريتين متدليتين من السرير . وأحياناً كثيرة كان يلبس جوربيه فى ساق واحد ، بل كان ينسى يديه فى طشت الماء وينسى نفسه على منضدة العمل وهو يكتب سطراً . أو يتعلم درسا . فيستسلم

للأحلام لمدة ساعات ، ثم يلاحظ — فجأة وبفزع — أنه لم يتعلم شيئا بعد . وفى العشاء كان يذهل حين يوجه إليه الكلام ، يجيب بعد دقيقتين من توجيه السؤال ويتوقف فى وسط جملته وقد نسى ما يريد أن يقول . كان ينكمش منصتا لهمس أفكاره مستسلما للاحساسات الأليفة التى كانت تملأ أيام الريف الرتيبة التى تنساب فى بطء : فكان يفكر فى البيت الكبير الذى كانوا يسكنون جزءاً منه تاركين نصفه خاليا ، وفى الأقبية ومخازن الحبوب الضخمة المخيفة ، وفى الغرف المقفولة المبهمة ومصاريع النوافذ المغلقة والأثاث المغطى ، والمرايا المغطاة ، والشمعدانات الملفوفة والصور العائلية القديمة ذات الابتسامات الملازمة ، ولوحات العهد الامبراطورى التى تمثل البطولة الفاضلة والاباحية من مثل : السيبياد وسقراط عند المحظية ومثل انطيوخوس وستراتونيس ، وقصة ايبامينونداس وبليزير الشحاذ . . وفى الخارج كان يفكر فى صوت الحداد يعمل فى الورشة المواجهة ورقصة المطارق العرجاء على السندان وصوت لهث المنفاخ الضعيف ، ورائحة القرن المحروق ، ثم صوت مطارق الغسالات الجالسات القرفصاء على شاطىء الماء ، وصوت الضربات الخافتة من سكين الجزار فى البيت المجاور ، وخطوة حصان تدق على أرض الشارع المبلطة ، وصرير الطلمبه ، والكوبرى وهو يدور على القنال ، والمراكب الثقيلة المحملة بأكوام الخشب ـ تمر بهدوء ـ مجرورة بحبل ، كل ذلك أمام الحديقة المرتفعة وفنائها الصغير المبلط الذى كان به حوض مربع من الطين حيث تنمو

زنبقتان وسط زهور القرنفل والبيتونيا ومجموعات الغار والرمان المزهره الموضوعة فى صناديق على شرفة تعلو القنال . وأحياناً تسمع ضوضاء السوق فى الميدان المجاور ، الفلاحون بقمصانهم الزرقاء اللامعة والخنازير الصائحة .. وفى يوم الأحد فى الكنيسة الشماس الذى يترنم بنغمات نشاذ والقسيس العجوز الذى ينام وهو يقول القداس والنزهة العائلية على طريق المحطة حيث يقضون الوقت فى تبادل التحيات ـ برفع القبعات ـ مع بؤساء آخرين ممن يعتقدون أيضاً أنهم ملزمون بالتنزه معاً . . حتى يصلوا أخيراً إلى الحقول المشمسة حيث القنابر تهتز خفية فوقها وحيث ترتعش الأشجار المتراصة على الجانبين طول مياه القنال البراقة الراكدة . ثم هـــذه الولائم الكبيرة والأكلات التى لا تنتهى ، حيث يدور الحديث حول مسائل الأكل فى علم وتلذذ . لأنه لم يكن هناك سوى الخبراء فى فن الطعام ولأن الشراهة ـ فى الريف ـ هى الشغل الشاغل ، الفن لذاته . ويتكلمون أيضاً عن الأعمال وعن الموضوعات المرحة .. وهنا وهناك عن الأمراض بتفاصيل لا تنتهى . والصبى الصغير وهو جالس فى ركنه ، لا يسمع له صوت أكثر من صوت فأر صغير ، يقرقط ولا يأكل ، وإنما ينصت بكل أذنيه . لا يفوته شىء وكان خياله يعينه إذا فاته شىء من الحديث . وكان يملك موهبة فريدة تجعله يخمن أفكارا لم تخطر بباله من قبل وربما لم يفهم منها إلا القليل ، هـذه الموهبة يمتاز بها معظم أبناء العائلات العريقة حيث انطبعت فى أذهانهم آثار قرون من الزمن . وكان هناك المطبخ حيث

كانت تدور عمليات غامضة لذيذة دموية . ثم الخادمة العجوز التى كانت تروى الأقاصيص الهزلية منها والمفزعة ، وأخيراً كان هناك الليل ، الخفافيش الصامتة والفزع من الأشباح المخيفة التى كان يعلم أنها تزاحم وتضطرب فى باطن هذا المنزل العتيق كالفيران الكبيرة، والعنكبوت الضخم المشعر ، ثم كانت هناك أيضاً الصلاة بجانب السرير وهو لا يسمع ما تتمتم شفتاه . وكان هناك صوت جرس المستوصف المتقطع المجاور للمنزل وهو يعلن بدقاته للراهبات ساعة النوم ، ثم السرير الأبيض ، جزيرة الأحلام . .

كانت أروع أوقات السنة هى تلك التى يقضونها فى ضيعة للعائلة على بعد فراسخ من المدينة فى الربيع والخريف ، وهناك ، حيث لا يرى أحد ، يستطيع الإنسان أن يحلم كما يشاء . وكما هو الحال بالنسبة لمعظم البرجوازين الصغار فقد حيل بين الطفلين وبين العامة من الناس كالخدم والمزارعين ، أولئك الذين كان يشعر الطفلان نحوهم ـ فى الحقيقة ـ بشيء من الخوف والاشمئزاز ولقد أخذا عن أمهما احتقاراً ارستقراطياً ، أو بعبارة أدق ، برجوازياً بالذات، احتقاراً لأولئك الذين يعملون بأيديهم . كان أوليفييه يقضى طيلة أيامه قابعاً فى فروع شجرة من أشجار الغرين يقرأ القصص الساحرة مثل الأساطير القديمة الأخاذة وحكايات موزييوس أو مدام دولنواى أو ألف ليلة وليلة أو روايات الرحلات وذلك لأنه كان يتوق إلى معرفة الأقطار البعيدة .. أحلام تسبح به فى المحيطات كتلك التى تأسر — أحيانا — قلوب صبيان المدن الصغيرة

فى المقاطعات الفرنسية . كانت مجموعة من الشجيرات الملتفة تخفى عنه المنزل ، فكان يمكنه الاعتقاد أنه قد ابتعد ، مع أنه كان يعرف أنه جد قريب . . ولذا كان راضيا لأنه لم يكن يحب الابتعاد وحده كثيراً ، فقد كان يشعر إذا ما ابتعد أنه قد فقد فى الطبيعة . . كانت الأشجار تتماوج حوله ، ومن بين أوراق الشجر المتجمعة كأعشاش الطيور ، كان يرى على بعد الكرمات المصفرة والمراعى الطبيعية حيث ترعى الأبقار المبرقشة التى يملأ صياحها البطىء صمت الريف الساكن ، وكانت أصوات الديكة الثاقبة تتردد من مزرعة لأخرى . وكانت تسمع آلات ضرب القمح فى الأجران تتكرر فى غير انتظام . وفى وسط هذا السكون الشامل كان هناك فيض متصل من حياة محمومة لآلاف وآلاف من الكائنات الحية . وكان أوليفييه يلاحظ بعين قلقة طوابير النمل التى تسير فى سرعة دائمة وجموع النحل ذات الطنين الذى يشبه صوت الأرغن وقد أثقلت بالغنيمة التى أتت بها من رحيق الزهور ، والزنابير الجميلة البلهاء التى لا تعرف ماذا تريد . . كان يراقب ذلك العالم من الحشرات المشغولة التى تبدو وكأن بها رغبة ملحة فى أن تصل إلى مكان ما . . ولكن أين ذلك المكان ؟ أنها لا تعرف لنفسها مقصداً وذلك عندها غير ذى بال ، ويرتعد أوليفييه وسط هذا العالم المعادى الذى لا يبصر ماحوله . . يرتعد كالخرنق لصوت ثمرة تسقط من شجرة صنوبر أو لفرع شجرة جاف ينكسر . . ولكن كان يهدىء

من روعه سماعه لصوت حلقات الأرجوحة حيث تتأرجح انطوانيت في عنف فى الطرف الآخر من الحديقة .

وكانت أنطوانيت تحلم هى الأخرى ولكن على طريقتها . . كانت تقضى طوال اليوم فى الحديقة باحثة فى كل مكان ، تأكل من كل شيء وتستطلع كل شيء ، تضحك وتلتقط حبات العنب حينا — وكأنها عصفور — وتنزع الخوخ من عريشته فى خفية حينا آخر . . تتسلق شجر البرقوق تارة أو تخبط عليه - وهى تمر - خبطات خفيفة خفية ليتساقط منه الثمر الذهبي كالمطر ، يذوب فى الفم كشهد معطر ، أو كانت تقطف الأزهار - وإن كان ذلك ممنوعا - تسرع فتنتزع وردة كانت تشتهيها منذ الصباح وتخاص بها إلى الكشك فى طرف الحديقة ، وهناك تدفن أنفها الصغير بلذة فى الوردة المسكرة وتقبلها .. ثم تخفيها - شيئا فشيئا - فى صدرها . . ولقد كانت لها هواية أخرى ، حلوة ولكنها محرمة ، تلك هى أن تخلع حذاءها وجواربها وتسير حافية القدمين ، على الرمل الرطب فى الممرات وعلى الحشائش المبللة فى الأرض المخضرة وعلى الطوب المثلج فى الظل أو الحارق فى الشمس . . أو تسير فى الغدير الصغير الذى ينساب على حافة الخميلة ، حيث تمس بقدميها وساقيها وركبتيها الماء والأرض والضوء . وكانت تنظر إلى يديها الشفافتين فى ضوء الشمس وهى مستلقية فى ظل شجر الصنوبر وتمر بشفتيها على ذراعيها الدقيقتين الممتلئتين الناعمتى الملمس كأنها الحرير . . وكانت تصنع تيجانا وعقودا وفساتين من أوراق شجر اللبلاب

وأوراق شجر البلوط وكانت ترتشقه بالحسك الأزرق وأشواك الفنيت الحمراء وأغصان الصنوبر الصغيرة بثمارها الخضراء، فكانت تبدو كأميرة صغيرة متوحشة ـ وكانت ترقص بمفردها حول نافورة الماء فكانت تدور وتدور ـ وذراعاها ممدودتان ـ حتى تدور رأسها وحتى تسقط على الأرض المخضرة مخبتة وجهها فى الحشيش، ضاحكة من كل قلبها مدة طويلة دون أن تستطيع مقاومة الضحك ودون أن تعرف ما الذى يضحكها .

وهكذا كانت تمر أيام الطفلين، كانا على بعد خطوات من بعضهما ولكن لا يهتم أحدهما بالآخر اللهم إلا حينما يحلو لانطوانيت ـ أثناء مرورها بأخيها ـ أن تداعبه فتقذفه فى أنفه بقبضة من ورق الصنوبر الإبرية، أو تهز شجرته مهددة إياها بأن تسقطه من فوقها أو تخيفه فتلقى بنفسها عليه وتصيح فجأة :

ــ هو ! هو ! . . .

وكان يعتريها أحياناً رغبة ملحة فى معاكسته، فتجعله ينزل من شجرته متظاهرة بأن أمه تناديه وحين ينزل تصعد مكانه ولا تريد أن تتحرك على الاطلاق وعندذلك يئن أوليفييه ويهدد بالشكوى . ولكن لم يكن هناك خوف من أن تظل أنطوانيت طويلا على الشجرة فإنها لا تستطيع البقاء فى راحة أكثر من دقيقتين إذ بينما تكون فى أوج سخريتها من أوليفييه وهى فى أعلى الشجرة وبينما هى تغيظه كيفما شاء لها الغيظ أن تفعل حتى يوشك على البكاء ، بينما تكون كذلك إذ هى تنزل

مسرعة إلى أسفل وترتمى عليه وتهزه ضاحكة منادية إياه « بالغبى الصغير» ثم تدحرجه على الأرض وهى تفرك أنفه بقبضة من الحشيش. ويكافح أوليفييه ما استطاع إلى المكافحة سبيلا ولكن لم يكن له من القوة ما يستطيع به الكفاح . وعند ذاك لا يتحرك ويظل مستلقيا على ظهره كالجعل، قد سمرت ذراعاه النحيلتان على الحشيش بأيدى أنطوانيت الصغيرتين القويتين واتخذ مظهراً مؤثراً بائساً مستسلماً . ولكن أنطوانيت لا تستطيع المقاومة إذ تنظر إليه وقد غلب على أمره وأسلم القيادة وتنفجر فى الضحك وتعانقه فجأة ثم تتركه ولكن بعد أن تدس فى فمه بمثابة توديع له قطعة صغيرة من الحشيش الطازج ، ذلك الذى كان يكرهه كراهة تامة لأنه كان سريع الاشمئزاز فيبصق ويمسح فمه ويحتج فى سخط بينما تهرب هى ضاحكة وقد أطلقت ساقيها للريح .

كانت أنطوانيت تضحك دائماً . تضحك حتى فى الليل وهى نائمة وكان أوليفييه الذى يرقد فى الغرفة المجاورة ـ ولا يكاد يأتيه الكرى إلا لماما ـ يرتعد وسط هذه القصص التى يقصها لنفسه حين يسمع هذه الضحكات الصاخبة وتلك الكلمات المتقطعة التى كانت تنطق بها فى سكون الليل . وفى الخارج كانت الأشجار تكاد تنكسر تحت هبوب الريح والبومة تنعق والكلاب تنبح فى القرى بعيداً وفى المزارع على الريح ، أطراف الخمائل وفى ضـــوء الليل الخافت كان أوليفييه يرى أغصان الصنوبر الثقيلة المعتمة تتحرك أمام نافذته كالأشباح وكان ضحك أنطوانيت يخفف ما به من خوف .

كان الطفلان متدينين جداً وخصوصا أوليفييه وكان أبوهما يصدمهما بعقائده المنافية للدين ولكنه كان يتركهما أحراراً فقد كان فى الحقيقة - كمعظم البرجوازيين الذين لا يؤمنون بالله - لا يغضب من أن ذويه يعتقدون نيابة عنه ، وذلك لأنه كان حريصا على أن يكون على صلة طيبة بالفريق الآخر ، فليس المرء على يقين - إطلاقا - من الناحية التى يتحول إليها الحظ . وعلى العموم فقد كان مؤمنا بالله وكان يحتفظ لنفسه بحق إحضار قسيس - فى الوقت المناسب - كما فعل أبوه: فإن كان هذا لا يفيده فإنه لا يمكن أن يلحق به ضرراً . وليس المرء فى حاجة لأن يعتقد أنه سيحرق ليتخذ لنفسه تأمينا ضد الحريق .

كان أوليفيه السقيم يميل إلى التصوف وكان يخيل إليه أحيانا أنه غير موجود فى هذا العالم ونظراً لأنه كان سريع التصديق شديد الإحساس فقد كان فى حاجة إلى دعامة تسنده . كان يجد فى الاعتراف لذة مشوبة بألم وكان عملا حسنا - بالنسبة إليه - أن يركن إلى الله الصديق الخفى بذراعيه المفتوحتين دائما ، ذلك الصديق الذى يستطيع أن يقول له كل شىء والذى يفهم كل شىء ويغفر كل شىء . كان يتذوق حلاوة الخضوع والحب حيث تخرج روحه نقية خالصة طاهرة مستريحة . وكان الاعتقاد بالله عنده شيئا طبيعيا لدرجة أنه لم يكن يفهم

كيف يستطيع إنسان أن يشك . كان يعتقد أن الإنسان الذى يشك إما أنه يتعمد ذلك تعمداً مرذولا وإما أن الله يعاقبه . كان يصلى لأبيه سرا ملتمساً له الرحمة حتى ينعم الله عليه بالإيمان . وكم كان سروره عظيما عندما زار كنيسة فى أحد الأقاليم مع أبيه — ذات يوم — فرآه يرسم علامة الصليب . وكانت قصص التاريخ المقدس تختلط عنده بالقصص الساحرة لروبيزاهل وجراسيوز وبرسينيه والخليفة هارون الرشيد . وعندما كان صغيراً كان لا يشك فى صحة هذه القصص جميعها كما أنه كان واثقاً من أنه يعرف سكا كاباك ذا الشفتين المشقوقتين والحلاق الثرثار والأحدب كاسجار كذلك حينما كان يتنزه كان يبحث بعينيه فى الحقول عن طائر البيك الأسود الذى يحمل فى منقاره الجذر السحرى للباحث عن الكنوز . يبحث عن كنعان وأرض الميعاد التى أصبحت بفضل خياله قرى مقاطعتى بورجونى والبيرى ، كان فى المقاطعة تل مستدير على قمته شجرة صغيرة كأنها ريشة قديمة فى قلنسوة قد فقدت بهاءها ، كان ذلك التل يبدو له كالجبل الذى أقام إبراهيم عليه الكومه . وكانت مجموعة من الأعشاب الجافة على حافة بعض الأغصان تبدو كالكومة المتقدة التى أطفأها الزمن . حتى حين لم يعد أوليفييه صغيراً جدا وعندما بدأت حاسة النقد تستيقظ عنده كان يجد لذة فى أن يترك خياله يسبح فى الخرافات الشعبية التى تتزين بها العقيدة ، كان يتلذذ بتلك القصص إلى درجة تجعله يكاد يصدقها وإن لم يكن — فى حقيقة

الأمر — يصدقها . وهكذا أخذ فى يوم السبت المقدس — ولأمد بعيد — يترقب بلهفة عودة أجراس عيدالفصح التى خرجت إلى روما فى يوم خميس العهد والتى ترجع أصداءها فى الأجواء ومعها الأعلام الصغيرة . كان قد توصل أخيرا إلى إدراك أن هـذا ليس حقيقيا . ولـكنه لا يكاد يستمر فى ذلك قليلا إلا ويتطلع إلى السماء حينما يسمع الأجراس تدق . وذات مرة صورله الوهم أنه رأى جرساً ذا شرائط زرقاء يختفى فوق المنزل وإن كان يعلم جيداً أن هذا غير ممكن .

وكان فى حاجة ملحة لأن يسبح فى ذلك العالم حيث تمتزج الخرافة بالإيمان. ولذا كان يهرب من الحياة ويهرب من نفسه وكان يقاسى من كونه هكذا : نحيلا ، شاحباً ، سقيما ، ولم يكن يحتمل أن يسمع الناس يقولون عنه ذلك . كان يحمل فى دخيلة نفسه تشاؤماً غريزياً يرجح أنه قد ورثه عن أمه. ووجد ذلك التشاؤم أرضاً خصبة فى ذلك الفتى الممراض . ولم يكن يتبين ذلك معتقداً أن كل الناس مثله ، وبدلا من أن يقضى ذلك الرجل الصغير ، ذو العشر سنوات ـ بدلا من أن يقضى أوقات راحته فى اللعب فى الحديقة ، كان يقبع فى غرفته وقد أغلقها عليه يكتب وصيته بينما هو يقضم شيئاً من الطعام بعد الظهر .

كان يكتب كثيرا وكان يمعن فى كتابة مذكراته كل مساء ، خفية ، لا يدرى هو لماذا ، لأنه لم يكن لديه مايقول سوى التفاهات . وكانت الـكتابة عنده عادة وراثية ، فقد كانت ضرورة يخضع لها براجوازيو

الريف الفرنسى ، ذلك الجنس العتيق الذى لا يفنى والذى يكتب لنفسه كل يوم حتى يوم وفاته فى صبر أحمق قد يصل إلى الاستبسال. يكتب مذكرات مفصلة — كل يوم — عما قد رأى ومما قال وما عمل وما سمع وما شرب وما فكر وما أكل ، يكتب لنفسه ليس لأى شخص آخر . لن يقرأه أحد أبدا وهو يعلم ذلك ، حتى هو نفسه لن يقرأ ما كتب على الإطلاق .

وكانت الموسيقى بالنسبة لأوليفييه كالإيمان ملجأ يحتمى به مثلما يحتمى الإنسان من قيظ النهار . وكان كل من الآخ والأخت موسيقيين بالطبيعة وخصوصاً أولفييه الذى كان يدين لأمه بهذه الموهبة . وكان ذوقهما الموسيقى فى حاجة إلى تقويم إلا أنه لم يوجد فى هذه الضيعة من يستطيع أن ينمى فيهما هـــذا الذوق ، إذ أن كل أنغام الموسيقى فى هذه المنطقة تنحصر ، تارة فى موسيقى فرقة البلدة التى كانت تعزف غالباً ألحاناً عسكرية ، وفى أحسن أيامها ، تعزف بعض المنوعات لأدولف آدم ، وتارة فى صوت أرغن الكنيسة وهو يردد القصائد ، وأخيراً فى عزف بعض آنسات الطبقة البرجوازية أثناء تمريناتهن على البيانو ، فكن يخبطن على آلات غير دقيقة ، بعض مقطوعات الفالس أو البولكا و « افتتاحية خليفة بغداد » أو « هنرى الصغير فى الصيد » واثنتين أو ثلاثا من سونات موزار ويكررنها دائما ، ودائماً بنفس النشاز . وذلك كان ضمن برنامج للسهرات ، لا يتغير بتاتاً ، عندما كانوا يستقبلون الزائرين فى منزلهم ، فكان من المقرر أن يطلب بعد العشاء من ذوى المواهب إبرازها ، أما هؤلاء فكانوا يستقبلون فى بادىء الأمر هذا الطلب بالرفض وقد علتهم حمرة الخجل . ثم يستجيبون أخيراً لرجاء الجماعة ويعزفون عن ظهر قلب أحسن مقطوعة لهم ، وفى النهاية يظهر كل واحد من الحاضرين إعجابه بذاكرة الفنان وبراعته فى العزف .

هذا الحفل الذى كان يتكرر فى كل سهرة تقريباً كان يفسد على الطفلين لذة العشاء وخصوصاً عندما كان يطلب منهما أن يقوما معاً بعزف مقطوعتهما « رحلة فى الضين » لبازان ، أو بعض ألحان وبيير القصيرة . كانت الثقة متبادلة بينهما ولذلك كانا لا يخشيان كثيراً هذه المواقف . ولكن عندما كان يضطر أحدهما أن يعزف بمفرده يبدأ العذاب . كانت انطوانيت كعادتها أشجع من أخيها ، ومع أن ذلك كان يضايقها أشد المضايقة فإنها كانت تمتثل ، علما منها بأنه لا مفر من هذا المأزق. فكانت تذهب إلى البيانو وتجلس فى عزم وتبدأ الروندو مسرعة تتلجلج تارة وتضطرب تارة أخرى ثم تتوقف وتدير رأسها وهى تبتسم قائلة :

— آه لم أعد أتذكر . . .

ثم تستأنف بشجاعة تاركة جزءاً من المقطوعة وتستمر حتى نهايتها . وكانت لا تحاول إخفاء سرورها لانتهائها من العزف . وعندما كانت تعود إلى مكانها وسط التهانى والمدح كانت تضحك قائلة :

— لقد أكثرت من الأخطاء ! . . .

أما أوليفييه فكان طبعه أقل بساطة من أخته . فكان لا يمكنه أن يظهر أمام جمهور ، وأن يكون موضع انتباه الجماعة بأكملها إذ أنه يتعذب لمجرد الكلام فى حضرة الناس ، فما بالك حين يلعب أمام أشخاص لا يحبون الموسيقى (كما كان يرى ذلك بوضوح) أو أكثر من هذا

أشخاص تضايقهم الموسيقى ، يطالبونك بالعزف لمجرد أنهم اعتادوا ذلك فقط . فكان رى فى ذلك ظلما طالما حاول أن يثور عليه دون جدوى. فكان يرفض فى إصرار ، وكان يهرب فى بعض الليالى ويختبىء فى حجرة مظلمة أو أحد ممرات المنزل أو حتى فى حجرة المخزن رغم خوفه من العنكبوت . وكانت مقاومته هذه تزيد من الإلحاح مع شىء من التهكم . وكان أهله يتولونه بالزجر والتأنيب يتخللهما بعض الصفعات إذا استلزم الأمر عندما تصل درجة ثورته إلى الوقاحة . وكان ينتهى به الأمر دائما إلى العزف . وكان هذا الوضع طبعا غير سليم . فكان يتعذب طول الليل لأنه لم يحسن العزف وهو الذى يحب الموسيقى حباً جما .

ولم تكن البلدة الصغيرة ، فيما مضى ، على هذه الحال من الذوق الموسيقى المنحط ، اذ أنهم يذكرون عهداً كانت تسمع فيه موسيقى لا بأس بها عند اثنين أو ثلاث من الأسر البرجوازية. وكثيراً ما كانت تتكلم مدام جانان عن جدها الذى كان يجر فى حرارة قوس الكمان الكبير كما كان يغنى ألحاناً من جلوك وداليراك وبرتون . كان لا يزال يوجد بالمنزل دفتر موسيقى كبير ومجموعة أوراق فيها ألحان إيطالية . فكان هذا العجوز المحبوب مثل أندريو الذى وصفه برليوز فقال : « كان يحب جلوك جداً » ، ويضيف بأسف وحسرة « وكان يحب جداً بتشينى أيضا » . كان العجوز يفضل بتشينى وعلى أية حال فإن عدد الألحان الإيطالية كانت تفوق بكثير الألحان الأخرى فى مجموعة الجد ،

وقد كانت كلها بمثابة الخبز الموسيقى لأوليفييه الصغير ، فكان غذاء غير كاف شبيهاً بالحلوى الرديئة التى تصنع فى الأرياف والتى يشبعون منها الأطفال ، فهى تضعف الذوق وتفسد المعـــدة وتهدد بإفساد الشهية إلى الأبد عن تذوق الطعام الجيد . ولا يمكن إتهام أوليفييه بالشراهة . إذ أنه لم يقدم له مأكولات غذائية صحيحة ، فكان يحرم من الخبز ويأكل الفطائر وهكذا ، بحكم الضرورة ، أصبح سيماروزا وبيزيللو وروسينى أساتذة لهذا الصبى الصغير الذى يميل إلى الكتابة والتصوف ، هذا الصبى الذى كان يسكره قليلا هذا المشروب القوى الذى كان يصبه له بدلا من اللبن هؤلاء الأساتذة الهزليون السفهاء الذين كان تأثيرهم عليه مثل آلهة الأغريق القدماء وكذلك برجوليز وبللينى هاتان الآلهتان الصغيرتان الرشيقتان من مدينتى نابل وكاتان بابتسامتهما الساذجة الشهوانية وبدمعهما الجميل الذى يترقرق فى عينيهما .

فكثيراً ما كان يعزف أوليفييه على انفراد ولمتعته الشخصية . كان متشبعا بها وكان يستسلم للذتها غير محاول أن يتفهم معانى ما كان يعزفه ، لم يفكر أحد فى تلقينه دروساً فى الإيقاع وهو أيضاً لم يهتم بذلك ، كانت هذه العائلة وخصوصاً من ناحية الأم خالية الذهن تماما عن كل ما يتعلق بالعلوم أو التفكير العلمى ، هؤلاء رجال القانون المحبون للفنون والآداب والمطلعون على الآداب القديمة ، كانوا لا يفقهون شيئا فى مسألة حسابية ولذا كانوا يذكرون أحد أفراد الأسرة — وكان على صلة بعيدة بها — كشخص خارق للعادة

لأنه عمل فى مكتب الأرصاد وزيادة على ذلك فقد قيل أنه أصيب بالجنون نتيجة لعمله هذا . إن الطبقة البرجوازية العتيقة فى الأقاليم تتمتع بعقل قوى واقعى ولكن أصابه الخمود لطول التفكير فى ذاته وسير الأيام على وتيرة واحدة وهذه الطبقة لها ثقة بالغة فى عقلها وثقتها به تبلغ حداً يجعلها تؤمن بأنه كفيل بحل أية مشكلة تعتريها مهما عظم شأنها ، والبرجوازية تميل إلى الاعتقاد بأن رجال العلم ليسوا إلا نوعاً من الفنانين ، أنهم ربما كانوا أكثر فائدة ولكنهم أقل شأناً من معظمهم ، لأن المعروف عن الفنانين أنهم لا يفيدون فى شىء وأن فى تكاسلهم شيئاً من الرقى على حين أن العلماء لا يختلفون كثيراً عن العمال ، يشتغلون بأيديهم وهذا ما يشينهم ، هم نوع من رؤساء العمال أكثر من الفنانين علماً ولكنهم مختلون قليلا ، تظهر قوتهم على الورق ولكنهم إذا خرجوا عن نطاق أعدادهم لا يعرفون شيئاً ، لا يمكنهم الوصول إلى هدف إن لم يتول قيادتهم أهل الرشد ، هؤلاء الذين يتمتعون بخبرة فى الحياة وبخبرة فى الأعمال .

والطامة الكبرى أن ليس هناك ما يؤكد أن هذه الخبرة بالحياة والأعمال تبلغ هذه المنزلة التى يتوهمها أهل الرشد ، وإنما هى بالأحرى خبرة بممارسة تحل عدداً يسيراً جداً من الحالات البسيطة ، فإذا ما حدث ظرف خارق يستلزم الجزم فى سرعة وعزم نجدهم مجردين من السلاح .

وكان الصيرفى جانان من هذا النوع من الرجال ، كانت الأمور تتكرر فى صورة لا تتغير داخل أطار الحياة الريفية ولذلك كان جانان

على علم دائم بما سوف يحدث ولم تقابله صعوبات حقيقية في أعماله حتى الآن ، خلف أباه في عمله كصيرفي دون استعداد خاص لهذه المهنة. وبما أن الأمور سارت على مايرام منذ بدئه في العمل فإنه كان يعتقد أن الفخر في ذلك يعزى إلى مواهبه الطبيعية ، وقد اعتاد أن يقول أنه يكفي للمرء أن يكون نزيهاً مجداً عاقلا للقيام بهذا العمل ، وكان في نيته أن يورث عمله ابنه دون أن يهتم بميول الطفل مثلما فعل أبوه بالنسبة إليه. ولكنه لم يعدّه لذلك العمل إذ أنه كان يترك أطفاله يفعلون ما يريدون بشرط أن يكونوا أطفالا فضلاء. وعلى الأخص أن يكونوا سعداء إذ كان يحبهم لدرجة العبادة ، لذلك كان الأطفال غير مؤهلين على الإطلاق للكفاح في الحياة كالأزهار التي تنبت داخل بيوت زجاجية ، ولكن أليست تلك هي الحياة التي سيحيونها دائماً ؟ في هذه البلدة الخاملة وسط هذه العائلة الثرية الكريمة ، ومع هذا الأب المرح الذي يحيطه الأصدقاء ويتمتع بمركز من أحسن مراكز البلد ، ولذا كانت الحياة بالنسبة إليهم سهلة ضاحكة .

وقد كانت انطوانيت فى السادسة عشر من عمرها ، أما أوليفييه فكان على وشك أن يتلقى المناولة الأولى (وهى سر من أسرار الكنيسة) وكان يعيش خاملا وسط طنين أحلامه الغامضة . أما انطوانيت فكانت تنصت بتلذذ إلى صوت الأمل المسكر وهو يشدو كالبلبل فى الربيع ، ويملأ القلوب المرحة الشابة وكانت تسعدبالشعور بأن جسدها وروحها يزدهران . وكانت تعلم أنها جميلة وتتلذذ عندما يذكرون لها ذلك ، وكان مدح أبيها وكلماته الجريئة كفيلة بأن تلعب بذهنها ، وكان أبوها معجباً جداً بها يفرح لتدللها ونظراتها المتمهلة فى المرآة ومكرها البرىء ولكن فى شىء من الخبث ، فكان يجلسها على ركبتيه وكثيراً ما كان يعاكسها بخصوص قلبها الصغير وانتصاراته فى ميدان الحب ، وطلبات الزواج التى كان يدعى أنها وصلته ويعدها لها . كلهم من البورجوازيين المحترمين . وكل واحد منهم أكبر سناً وأقبح شكلا من الآخر فكانت تصرخ باشمئزاز وترسل ضحكاتها عاليا وهى تلف ذراعيها حول عنق أبيها ووجهها راقدا فوق خده ، فكان يسألها من سيكون المختار السعيد : هل هو رئيس النيابة الجمهورية التى تقول عنه خادمة آل جانان العجوز أنه قبيح مثل الخطايا السبع الرئيسية أم أنها تفضل الموثق البدين . فكانت تضربه ضربات خفيفة

لتسكته أو تغلق له فمه بيديها فكان يقبل هاتين اليدين الصغيرتين ويغنى لها وهو يؤرجحها على ركبتيه هذه الأغنية المعروفة :

ماذا تريدين أيتها الجميلة .

أهو زوج قبيح جدا ؟

فكانت تجيبه وهى تنفجر ضاحكة بهذا اللحن المتكرر فى الأغنية وهى تعقد له شعر عارضتيه تحت ذقنه :

يكون جميلا خير من أن يكون قبيحا .

أيتها السيدة من فضلك .

وفى قرارة نفسها كانت تعتزم اختيار زوجها بنفسها . وكانت تعلم أنها غنية وأنها ستكون غنية (إذ أن أباها كان يفهمها ذلك بكل الطرق) وستكون عروسا مشتهاة ، وأخذت العائلات الكبيرة التى فى البلد ، والتى لها أبناء، تلاطفها منذ ذلك الحين ناصبة حولها شباكاً لا يصعب على أحد فهمها ، من التملق البسيط والمكر الماهر، لتتمكن من صيد هذه السمكة الفضية الجميلة ، ولكن هذه السمكة مستعدة لأن تفلت منهم بسهولة . لأن انطوانيت الذكية لم يفتها شىء من حيلهم هذه ، بل كانت تتسلى بها ، لم تمانع فى الزواج بشرط ألا يتعارض ذلك مع إرادتها . إذ اكتمل فى مخيلتها الصغيرة الشخص الذى تريد الاقتران به .

وفى كل بلدة من بلاد الريف الفرنسى توجد أسرة تعتبر أعرق أسرة ، تدعى أنها سليلة الأشراف القدماء وولاة المقاطعة ، ولكنها تنحدر فى معظم الأحيان من أحد الذين اشتروا الأموال المصادرة أثناء الثورة الفرنسية ، أو أحد رجال المال فى القرن الثامن عشر ، أو أحد متعهدى جيوش نابليون . وفى هـذه البلدة كانت أعرق الأسر أسرة آل بونيفيه. وقد أخذت تتقرب من آل جانان . وكانت تمتلك ، على بعد فرسخين من البلدة قصراً ذا أبراج عالية مغطاة بالأردواز اللامع فى شكل مدبب . وكان هـذا القصر يقع وسط الخمائل الكبيرة التى تتخللها الغدران المليئة بالأسماك . وكان بونيفيه الصغير يحاول ملاطفة انطوانيت وهو شاب وسيم الطلعة ، قوى ، بدين بالنسبة لسنه ، لا يعمل شيئاً طيلة نهاره سوى الصيد والأكل والشرب والنوم ، يركب الخيل ويلم بالرقص ، رقيق إلى حد ما ، فى معاملته ولم يكن غباؤه يزيد على غباء أى شخص آخر . فكان يحضر بين حين وحين من القصر إلى البلد لابساً الحزمات ممتطياً جواده أو راكبا عربته الصغيرة ، ويزور صاحب المصرف متعللا ببعض الأعمال ، وأحيانا كان يحضر معه ثمار صيده أو طاقة كبيرة من الورد يقدمها لسيدات آل جانان ، وكان ينتهز هذه الفرصة ليلاطف انطوانيت ويتنزها معا فى الحديقة ويوجه إليها المدح بأسلوب بدائى ويمزح بلطف وهو يفتل شاربيه ويضرب أرض الشرفة بمهمازه . وكانت انطوانيت تجده جذاباً ، إذ أن كبرياءها وقلبها كانا يشعران بالرضا إلى جانبه .

فكانت تسلم نفسها لهذه الساعات الأولى العذبة من الحب الصبيانى .
أما أوليفييه فكان يكره ذلك الشريف لقوته وثقله وشراسته ولأنه
كان يضحك بصوت عال ، وأيضاً لأن له يدين تضغطان على يديه
كالكلابات ولأنه كان يناديه دائماً فى شىء من الازدراء وهو يقرصه
فى خده « أيها الصغير » . وكان يكرهه على الأخص — ولكن دون
وعى فيه — لأن هذا الغريب يحب أخته . . أخته هو . . ملكه هو . .
هو فقط دون غيره . .

ومع ذلك فقد كانت الكارثة في طريقها إليهم ، وفي حياة أمثال هذه العائلات البرجوازية القديمة التي تتشبث بنفس المربع من الأرض منذ أجيال وتستنفذ كل عصاراتها ، لا بد — إن عاجلا أو آجلا — أن تقع مثل هذه الكارثة . إن هذه العائلات تنام مطمئنة ، معتقدة أنها خالدة مثل الأرض التي تحملها . ولكن الأرض جفت تحتها ولم يعد لها جذور ، فضربة فاس واحـــدة تكفي لأن تجتث كل شيء . وعندئذ يبدأ الحديث عن سوء الحظ وعن المصائب غير المنتظرة . لو كانت شجرة الأسرة أكثر مقاومة لما كان هناك سوء حظ ، أو على الأقل لمرت التجربة كريح عاصفة ، بعد أن تنتزع بعض الفروع ودون أن تزعزع الشجرة أبدا .

كان « جانان » صاحب المصرف رجلا ضعيفا كبير الثقة بنفسه ، مغروراً إلى حد ما ، وكان يلذ له — ذراً للرماد في العيون — أن يخلط متعمداً بين المظهر والواقع . كان يبعثر الأموال بغير ترو ولكن الواقع أن هذا التبذير الذي أخذت عادات التدبير المتوارث تلطف من حدته لم يكن لينقص كثيراً من ماله (فقد كان يجود بمتر مكعب من الخشب في الوقت الذي كان يبخل فيه بعود من الثقاب) إلى جانب ذلك فهو لم يكن شديد الحذر في أعماله ، فلم يكن يرفض أبداً

أن يقرض أصدقاءه ولم يكن من الصعب على المرء أن يكون من أصدقائه، حتى الإيصالات لم يكن يهتم دائماً بأخذها ، كان مهملا فى احتساب ديونه التى لم يكن قط ليطالب بها إن لم يتقدم الدائنون بردها بأنفسهم وكان يعتمد على حسن نية الآخرين كما كان ينتظر من الآخرين أن يعتمدوا على حسن نيته . والواقع أنه كان أكثر خجلا مما توصى به معاملاته الصريحة البعيدة عن الكلفة . ولم يكن أبداً ليجرؤ على رد بعض السائلين الشديدى الإلحاح ، أو على إظهار مخاوفه من مقدرتهم على السداد . وكان فى تصرفاته تلك طيبة ممزوجة بالضعف . ولم يكن يريد أن يجرح أحداً وهو يخشى أن يجرحه أحد ، لذلك كان يستسلم دائما . ولكى يخدع نفسه كان يقدم ماله بحماس يخيل إليك معه أنك تخدمه إذ تقبله منه . وأوشك أن يقنع نفسه بأن تلك هى الحقيقة، فإن تفاؤله وكبرياءه كانا يقنعانه بسهولة بأن كل ما يؤديه لابد وأن يكون عملا طيبا.

ولم تكن هذه التصرفات لتبعد عنه عطف المدينين . كان الفلاحون يعبدونه وهم يعرفون أن فى استطاعتهم دائماً الإلتجاء إلى عطفه، وكانوا يسرفون فى ذلك ولم يخيب جانان رجاءهم أبداً . ولكن ، اعتراف الناس بالجميل ، حتى الطيبين منهم ، كالفاكهة يجب جمعها فى أوانها . أما إذا تركت زمناً على الشجرة ، فلن تلبث أن تفسد . وعندما تمر بضعة شهور يكون عملاء جانان قد ألفوا التفكير فى أن هذه الخدمة إنما هى واجب يؤدى لهم ، بل أنهم كانوا يميلون إلى الاعتقاد بأن جانان — وقد أظهر هذا السرور المتناهى لمساعدتهم — لا بد واجد

له منفعة فى ذلك ، وكان أرقهم شعورا يعتبرون أنفسهم قد تخلصوا — إن لم يكن من الديون فعلى الأقل من العرفان بالجميل — لو أهدوا صاحب المصرف ، يوم سوق البـــلد ، أرنباً برياً اصطادوه أو سلة من بيض دجاجهم .

ولما لم يكن جانان ، حتى الآن ، قد تعامل فى الواقع إلا بأموال صغيرة ومع أناس معظمهم شرفاء فلم يكن هناك خطر يذكر . كانت الخسائر طفيفة ولم يبح بها لأحد . ولـكن الأمر تغير عندما وجد جانان نفسه أمام محتال كان يزمع القيام بمشروع صناعى ضخم ، وكان على دراية بتساهل صاحب المصرف وبموارده المالية . هـذا الشخص الذى كان يتظاهر بالعظمة والذى كان يتحلى بوسام جوقة الشرف ويدعى الصداقة لاثنين أو ثلاثة من الوزراء ولأحد المطارنة ولمجموعة من أعضاء مجلس الشيوخ : كما كان يدعى صداقة شخصيات مختلفة من مشاهير رجال المـال والأدب وصداقة إحدى الصحف القوية النفوذ . ذلك الرجل كان يتصرف بمهارة فائقة تتفق وطباع جانان . وكان الأسلوب الذى استعمله معه صارماً وودياً فى نفس الوقت . ولـكى يقوى مركزه ، عرض على جانان رسائل من المديح العادى تلقاها من بعض معارفه من العظماء يشكرونه فيها على دعوة لعشاء أو يدعونه بدورهم . كان يعرض تلك الرسائل بطريقة غليظة يمكن أن تثير من يكون أكثر رقة من جانان . والمعروف عن الفرنسيين أنهم

لا يقترون فى عملة الرسائل هذه وأنهم يتقبلون بسهولة مصافحة الأيدى ، ودعوات أشخاص لم يمض على معرفتهم بهم أكثر من ساعة ، بشرط أن يسلوهم ولا يطلبوا شيئاً من مالهم . ثم أنهم قد لا يبخلون بمالهم نحو الصديق الجديد إذا سبقهم إلى ذلك آخرون ، والرجل اللبيب الذى يحاول أن يريح جاره من ضائقته المالية سيكون سيء الحظ إذا لم يتنه بإيجاد الشخص الذى يقبل أن يكون أول من يبدأ لينساق وراءه القطيع ، وحتى إذا لم يكن ثمة قطيع قبل جانان فقد كان هو نفسه على استعداد لأن يبدأ بالتضحية . لقد كان جانان من ذلك النوع الجيد من الأغنام الغزيرة الصوف التى خلقت لتجز . وخدعه هذا الرجل بما له من علاقات طيبة ، وبفصاحته ومداهنته . كما خدعته نصائحه بما أتت من نتائج طيبة فى أول الأمر وبدأ يخاطر قليلا ونجح . وحينئذ خاطر بالكثير . ثم خاطر بكل ما لديه : ليس بماله فحسب ولكن بمال عملائه أيضاً ، وكان يأبى أن يخبرهم بذلك لتأكده من الربح وكان يريد أن يبهرهم بخدماته .

وإذا بالمشروع يفشل وعلم ذلك بطريق غير مباشر من أحد مراسليه الباريسيين الذى قال له كلمة عابرة عن الإفلاس الأخير ، وهو لا يدرى أن جانان كان من بين الضحايا ، ذلك لأن صاحب المصرف لم يكن قد باح لأحـــد بشيء . وكان قد أهمل — أو هو تجنب على ما يبدو — ببساطة يصعب إدراكها طلب النصيحة عند القادرين

على إرشاده . كان قد عمل كل شيء سراً معجباً بحسن إدراكه الذى ظنه معصوماً من الخطأ مكتفياً بمعلومات غامضة عن الموضوع . والحياة فيها مثل هذه الأخطاء الجسيمة : ففى بعض الأحيان يدفع الإنسان بنفسه إلى الهلاك المحتوم ويبدو حينئذ أنه يخاف من مساعدة الغير له ، فهو يهرب من كل نصيحة يمكن أن تنقذه ، إنه يختبيء ، ويسرع فى لهفة ليلقى بنفسه فى الفراغ بمحض اختياره .

هرع جانان إلى المحطة ليأخـــذ القطار إلى باريس وقلبه مليء بالحسرة . لقد ذهب للبحث عن صاحبه ، صاحب المشروع الضخم ، كان ما يزال يخدع نفسه أملا فى أن تكون الأخبار كاذبة ، أو على الأقل مبالغاً فيها . ولم يجد صاحبة ، فتأكد من الخراب الداهم . وعاد محموماً ولكنه يكتم كل شيء . ولم يكن الشك ، حتى ذلك الوقت ، قد تطرق إلى الأذهان ، فحاول جانان أن يكسب بضعة أسابيع أو حتى بضعة أيام ، حاول — بتفاؤله الذى لا دواء له — أن يقنع نفسه بأن فى استطاعته إيجاد حل لتعويض خسائره ، أو على الأقل الخسائر التى كبدها عملاءه . حاول محاولات عديدة باندفاعه الأخرق الذى كان من شأنه أن ينتزع منه كل فرصة فى النجاة — لو كان هناك أمل . أراد أن يقترض فقوبل بالرفض فى كل مكان . ودفعه اليأس إلى مضاربات خطيرة جازف فيها بالقليل الذى تبقى له وكانت سبباً فى ضياعه النهائى . ومن ذلك الحين تغيرت طباعه تغيراً كاملا . كان لا يتكلم

عن أى شىء ولكنه بدا محتداً، عنيفاً، قاسياً حزيناً حزناً مخيفا . ومع ذلك فقد ظل يتظاهر بالبشاشة مع الغرباء ؛ ولكن اضطرابه لم يخف على أحد . وكانوا يرجعون ذلك إلى سوء صحته . أما مع أفراد عائلته فقد كان أقل مراقبة لنفسه ، وكانوا هم قد لاحظوا أنه يخفى شيئاً خطيرا، ولقد تغير تغيراً كاملا ، فأحياناً كان يهجم على إحدى الغرف ليفتش دولاباً ما ويبعثر الأوراق على الأرض ، ثم ينفجر فى ثورة من الغضب ، عندما لا يجد ما يريد أو عندما يتقدم أحد لمساعدته . ثم يظل غارقاً فى هذه الفوضى ، وإذا سألوه عن بغيته ، كان هو نفسه لا يدرى . وبدأ لا يهتم بأفراد أسرته ، أو أنه كان يقبلهم والدموع فى عينيه وأصبح لا ينام ولا يأكل .

وشعرت زوجته أن كارثة ما على وشك الوقوع ولكنها لم تتعود أبداً أن تشارك زوجها فى أعماله . فقد كانت لا تفهم فيها شيئا . ومع ذلك سألته عن الأمر فنهرها بشدة وعندئذ لم تعاود الكرة ، بعد أن جرح شعورها، ولكنها كانت ترتعد دون أن تدرى لذلك سببا .

ولم يستطع الأولاد أن يدركوا الخطر . أما انطوانيت فكانت من الذكاء بحيث أحست ـ مثل أمها وأخيها ـ بكارثة تقترب ولكن حبها الوليد كان قد ملك عليها كل تفكيرها ، لم تكن تريد أن تفكر قلقها ، كانت تقنع نفسها بأن الغيوم لن تلبث أن تزول من نفسها ،

أو أنه من الممكن أن يكون هناك متسع من الوقت لأن تواجهها إذا لم يكن هناك مفر من ذلك .

وربما كان أوليفييه الصغير أقرب إلى فهم مايدور فى نفس صاحب المصرف المسكين . كان يشعر أن أباه يتألم . وكان يتألم معه سرا . ولكنه لم يكن يجرؤ على أن يقول شيئاً . كان عديم الحيلة ولم يكن يعرف شيئا . ثم أنه هو الآخر كان يبعد تفكيره عن هذه الأشياء المقبضة التى تخرج عن دائرة تفكيره . وكان — مثل أمه وأخته — يميل إلى الاعتقاد الباطل بأن النكبات التى لا يريدها أن تحدث قد لا تحدث . إن الضعفاء عندما يشعرون بالخطر يفعلون كالنعامة ، يخبئون رؤوسهم خلف حجر متخيلين أن النكبة لا تراهم .

وبدأت الإشاعات المقلقة تنتشر . قيل إن الثقة بالمصرف بدأت تتزعزع . وعبثاً حاول صاحب المصرف أن يصطنع الثبات أمام عملائه، فقد شك بعضهم فى الأمر وطالبوا باسترداد أموالهم . وشعر جانان بأنه ضائع لا محالة ، وأخذ يدافع دفاع اليائس متظاهراً بالغضب ، آخذاً على الناس — بكبرياء ومرارة — شكهم فى أمره . وبلغ به الأمر أن احتد على بعض عملائه القدامى بما أفقده ثقة الناس نهائياً . وتدفقت المطالبات بالسداد على المصرف . ووجد جانان نفسه أمام الأمر الواقع وضيق عليه عملاؤه الخناق ففقد صوابه تماماً . وقام برحلة قصيرة إلى إحدى المدن القريبة الشهيرة بمياهها المعدنية حيث قامر فى أحد الكازينوات بكل ما تبقى معه من مال ، وأضاع كل شىء فى ربع ساعة ثم عاد .

وكان رحيله المفاجىء قد قلب المدينة الصغيرة إذ سرعان ما قيل أنه كان هارباً ، ووجدت زوجته صعوبة كبيرة فى مقاومة قلق الناس العنيف ، توسلت إليهم أن يصبروا وأقسمت لهم أن زوجها سيعود ، ولكنهم لم يصدقوا بالرغم من أنهم كانوا يريدون أن يصدقوا . لذلك كانت عودته — عندما علموا بها — سلوى للجميع . ولم يكن بعيداً على تفكير الكثيرين أن قلقهم كان فى غير محله وإن أسرة جانان كانت من الدهاء بحيث تستطيع دائماً أن تتخلص من العثرات لو سلمنا بأنها قد وقعت فيها ؛ وكان مسلك صاحب المصرف يؤيد ذلك الشعور . والآن بعد أن لم يعد لديه أدنى شك فيما كان عليه

أن يفعله بدا متعباً ولكن هادئاً جداً . وعندما نزل من القطار وسار في طريقه قابل بعض الأصدقاء وأخذ يتحدث إليهم باطمئنان. حدثهم عن الريف الذي نضبت مياهه منذ أسابيع ، وعن الكروم الجميلة ، وعن سقوط الوزارة التي أعلنتها صحف المساء .

ولما وصل إلى المنزل تظاهر بعدم الإكتراث لاضطراب زوجته التي أسرعت نحوه لتقص عليه ، في لهفة واضطراب ، ما حدث أثناء غيابه . حاولت أن تقرأ على وجهه إذا كان قد استطاع أن يدفع الخطر المجهول، ومع ذلك فلم يسمح لها كبرياؤها أن تسأله عن أي شيء . كانت تنتظر أن يبدأ هو الحديث . ولكنه لم يفه بكلمة واحدة عما كان يشغل بالها. وأزاح بصمت ورفق رغبتها في أن تتودد إليه لتجعله يفضي إليها بأسراره . تحدث عن حرارة الجو ، عن تعبه ، وشكا من ألم شديد في رأسه ، ثم جلسوا جميعاً حول المائدة كالعادة .

كان قليل الحديث ، متعباً ، شارد الذهن ، مقطب الجبين ، ينقر على المائدة بأصابعه ؛ حاول جهده أن يأكل وهو يعلم أن الكل يراقبه. وأخذ ينظر نظرات زائغة نحو أولاده الخائفين من السكون ونحو زوجته المتمسكة بكبريائها والتي كانت تراقب حركاته دون أن تنظر إليه .

وقبل أن ينتهي العشاء بدا أنه استيقظ ، فأخذ يتحدث إلى انطوانيت وأوليفييه . سألهما عما فعلاه أثناء رحلته ، ولكنه لم يسمع الإجابة ، لم يسمع إلا صدى أصواتهما ؛ وبالرغم من أن عيونه كانت مثبتة عليهما

إلا أن نظراته كانت زائغة .. وشعر بذلك أوليفييه فتوقف عن حكاياته ولم يعد لديه الرغبة فى مواصلة الحديث . أما انطوانيت فقد بدأت تبتهج بعد لحظة من الضيق وأخذت تتحدث ، كعصفور مرح ، واضعة يدها فوق يد أبيها ، أو ممسكة ذراعه لتجعله ينصت جيداً لما تقص عليه. ولم يتكلم جانان . وأخذت نظراته تنتقل بين إنطوانيت وأوليفييه وتغضنات جبينه تزداد وضوحاً . وبينما كانت انطوانيت فى منتصف حديث لها ، لم يستطع هو أن يخفى ما فى نفسه أكثر من ذلك ، فترك المائدة واتجه إلى النافذة لكى يخفى اضطرابه . وطوى الأولاد مناشفهم وقاموا هم أيضاً . أرسلتهم أمهم ليلعبوا فى الحديقة ، وما لبثوا حتى سمعت صيحاتهم الرفيعة وهم يتتابعون فى الممرات . ونظرت مدام جانان إلى زوجها الذى أدار لها ظهره ودارت حول المائدة متظاهرة بأنها تريد ترتيب شىء ما . وفجأة اقتربت منه وقالت له بصوت يخنقه الاضطراب والخوف من أن يسمعها الخدم :

— أخيراً يا أنطوان ، ماذا بك ؟ أن بك شيئا . . نعم ! أنت تخفى شيئاً . . هل حدث مكروه ؟ أأنت مريض ؟

ولكن جانان هز كتفيه علامة على نفاد صبره ، وأبعدها عنه مرة أخرى قائلا بلهجة قاسية :

— لا ، أقول لك لا ! دعينى وشأنى !

وابتعدت عنه وهى غاضبة تقول لنفسها أثناء غضبها الأحمق أنها لن تكترث بعد الآن مهما حدث لزوجها .

ونزل جانان إلى الحديقة . كانت انطوانيت ما تزال تواصل مجونها وتضايق أخاها لتجعله يجرى أمامها . ولكن أخاها أعلن لجأة أنه لم يعد يريد أن يلعب واعتمد بمرفقه على حائط الشرفة على بعد خطوات من أبيه . وحاولت انطوانيت مرة أخرى معاكسته ، ولكنه أبعدها عنه بأن تجهم لها . فألقت إليه ببعض العبارات لاغاظته ، ولم يكن هناك أى مجال للعب فى الحديقة ودخلت المنزل وجلست إلى البيانو .

وظل جانان وأوليفييه وحدهما .

وسأل جانان ابنه بهدوء :

ـــ ماذا بك يا صغيرى ؟ ولماذا لم تعد تريد أن تلعب ؟

ـــ إننى متعب يا أبتاه .

ـــ جسناً إذن دعنا نجلس قليلا على هذا المقعد .

وجلسا . كانت ليلة جميلة من ليالى سبتمبر . السماء صافية ومعتمة ورائحة « البتونيا » العطرة تمتزج بالرائحة المتعطنة الكريهة بعض الشىء التى تخرج من القناة الراكدة تحت حائط الشرفة . وكانت فراشات المساء الكبيرة الشقراء ترفرف بأجنحتها حول الأزهار محدثة صوتاً يشبه صوت المغازل الصغيرة . وعلى الضفة الأخرى للقناة كان صدى

أصوات الجيران الجالسين أمام أبواب بيوتهم يرن فى السكون . وفى داخل المنزل كانت انطوانيت تعزف على البيانو مقطوعات إيطالية خفيفة ذات أنغام مرحة . أما جانان فقد وضع يد أوليفييه فى يده . كان يدخن وكان أوليفييه يرى فى الظلام الذى أخذ يخفى تقاطيع وجه أبيه ضوء الغليون الخافت . كان الغليون يشتعل ، ثم ينطفىء قليلا ، ثم يعود فيشتعل وينتهى بأن ينطفىء نهائياً . كانوا لا يتحدثون . وسأل أوليفييه عن أسماء بعض النجوم وكان أبوه — مثل معظم البورجوازيين فى الأرياف — جاهلا بالطبيعيات ولا يعرف إسم أى نجم ، اللهم إلا الأبراج الكبيرة التى لا يجهل أسماءها أحد . ولكنه تظاهر بأن ابنه يسأل عن هذه الأبراج بالذات فسماها له . ولم يعارض أوليفييه فقد كان يجد دائماً لذة فى أن يستمع إلى تلك الأسماء الغريبة ويرددها بصوت خافت . ومع ذلك فقد كانت رغبته فى المعرفة حينذاك أقل من ميله الطبيعى فى التقرب من أبيه . وسكت الإثنان . وكان أوليفييه يتأمل النجوم ، فاغرا فاه ، مسنداً رأسه على ظهر المقعد . وشعر بالخمول عندما سرى إليه الدفء من يد أبيه . وفجأة بدت هذه اليد ترتعش ، وعجب أوليفييه لذلك وقال بصوت ضاحك يثقله النعاس :

— أوه ، إن يدك ترتعش يا أبى !

فسحب الأب يده .

ولم تكف رأس أوليفييه الصغيرة عن التفكير وقال بعد برهة :

ــ هل أنت أيضاً متعب يا أبى ؟

ــ نعم ياصغيرى .

وعاد الابن يقول بصوته الملىء بالعاطفة :

ــ لا يجب أن تتعب نفسك إلى هذا الحد يا أبى .

وجذب جانان رأس ابنه نحوه ، وأسندها على صدره وهو يغمغم :

ــ ياصغيرى المسكين !

ولكن أفكار أوليفييه كانت قد اتخذت لها اتجاهاً آخر . ودقت ساعة البرج ثمانى دقات فتخلص الولد من أبيه وهو يقول :

ــ أنا ذاهب لأقرأ .

فقد كان يسمح لأوليفييه ــ أيام الخميس ــ بالقراءة لمدة ساعة بعد العشاء حتى يحين موعد النوم .كان ذلك منتهى السعادة بالنسبة إليه ولم يكن فى الدنيا شىء يستطيع أن يجعله يضحى بدقيقة من ذلك الوقت .

وتركه أبوه يذهب . وأخذ جانان يذرع الشرفة المظلمة جيئة وذهابا ثم دخل المنزل هو الآخر .

وفى الغـــرفة كانت الأم وأولادها مجتمعين حول المصباح : انطوانيت تضع شريطاً لرداء بدون أن تكف لحظة عن الكلام أو الغناء بالرغم من تضايق أوليفييه الذى جلس أمام كتابه وقد قطب حاجبيه مكبا على المائدة وقد وضع يديه على أذنيه لكيلا يسمع شيئا .

وكانت مدام جانان ترفو بعض الجوارب وهى تتحدث إلى الخادم العجوز التى وقفت إلى جانبها تقدم حساباً عن مصروفات ذلك اليوم وانتهزت تلك الفرصة لتتحدث قليلا . وكان دائما لديها حكايات مسلية تحكيها بطريقة مثيرة تجعلهم جميعا ينفجرون ضاحكين وتجعل انطوانيت تحاول أن تقلدها .

نظر إليهم السيد جانان صامتا ولم يلتفت إليه أحد . وقف حائرا فترة ما ثم جلس وأخذ كتاباً فتحه كيفما اتفق ثم أغلقه وقام من مكانه إذ لم يكن فى إمكانه البقاء أكثر من ذلك ، ثم أشعل شمعة وقال :

ـــ أسعدتم مساء .

ثم اقترب من الصغار وعانقهم بحرارة . وردوا على تحيته بدون انتباه ودون النظر إليه . أما انطوانيت فقد كانت منهمكة فى أشغالها ، وكان أوليفييه مأخوذاً بكتابه ولم يبعد يديه عن أذنيه ولكنه رد على التحية بغمغمة وهو يواصل القراءة . ولم يكن يهتم أوليفييه عندما ينهمك فى القراءة أن يقع أحـــد أفراد أسرته فى نار الموقد . خرج السيد جانان من الغرفة وأخذ يتلكأ فى الغرفة المجاورة . وجاءت زوجته بعد قليل لتضع بعض البياضات فى أحد الدواليب ، إذ كانت الخادم قد انصرفت ، وتظاهرت بأنها لم تره . وتردد هو ثم اقترب منها وقال :

ـــ أرجو المعذرة ، لقد تحدثت إليك بخشونة منذ قليل .

وودت لو قالت له :

ـــ لست متحاملة عليك يازوجى المسكين ، ولكن ماذا بك ؟ قل لى إذن ماذا يجعلك تتألم ؟

ولكنها قالت له وهى جد سعيدة . إذ وجدت الفرصة لتثأر لنفسها :

ـــ دعنى وشأنى ! إنك فظ غليظ معى ، إنك تعاملنى بطريقة لا تعامل بها خادمة ، وبهذه اللهجة ظلت تعدد له شكواها بإسهاب عنيف ملىء بالحقد .

وقابل كل ذلك بحركة فيها شىء من الضيق ، وابتسم ابتسامة مريرة ثم انصرف .

إن أحداً لم يسمع صوت الرصاصة . ولكن الجيران تذكروا في اليوم التالي عند ما علموا بما حدث أنهم كانوا قد سمعوا — عند منتصف الليل تقريباً — وفي صمت الطريق ، صوتاً جافاً كأنه ضربة سوط ، فلم يهتموا به . ولم يلبث هدوء الليل أن عاد فغمر المدينة وطوى في ثناياه الأحياء والموتى .

واستيقظت مدام جانان بعد ساعة أو ساعتين ، ولم تجد زوجها إلى جانبها ، قامت قلقة فجابت كل الغرف ، ثم نزلت إلى الدور السفلي ، ثم ذهبت إلى مكاتب المصرف التي كانت في جزء من مبنى مجاور للمنزل . وهناك في غرفة السيد جانان وجدت زوجها على الأريكة منهاراً على مكتبه وسط دمائه التي كانت ما تزال تقطر على الأرض ، وصرخت صرخة عالية ، وسقطت من يدها الشمعة التي كانت تحملها وأغمي عليها . وسمعها من كان في المنزل فهرع الخدم ليحملوها ويعنوا بها ، ثم حملوا جثة السيد جانان ووضعوها على فراش . كانت غرفة الصغار مغلقة وانطوانيت نائمة . وسمع أوليفييه أصواتاً ووقع أقدام : كان يود لو يعرف ما الخبر ولكنه خشي أن يوقظ أخته فعاود النوم .

وفي صباح اليوم التالي كان الخبر قد انتشر في المدينة قبل أن يعرف الأولاد أي شيء ، وأطلعتهم الخادم العجوز على الخبر وهي تنتحب ، كانت

أمهم خارجة عن وعيها لا تستطيع التفكير فى أى شىء ، وكانت صحتها فى حالة تبعث على القلق . ووجد الصغيران نفسيهما وحيدان أمام الموت وقد تغلب رعبهما فى اللحظات الأولى على ألمهما . وبعد ذلك لم تترك لهما الفرصه للبكاء بعيداً عن الناس إذ بدأت منذ الصباح الإجراءات القضائية القاسية . كانت أنانية الصبا تدفع انطوانيت — وقد اعتكفت بغرفتها — إلى أن تبذل قصارى جهدها لكيلا تفكر فى شىء آخر غير صديقها . كانت تلك هى وسيلتها الوحيدة التى تساعدها على طرد الألم الفظيع الذى كان يخنقها وانتظرت قدومه من ساعة لأخرى . ولم يحدث أن تلطف معها صديقها مرة مثلما حدث فى المرة الأخيرة التى رأته فيها . لم تكن تشك فى أن يسرع لمشاركتها حزنها ، ولكن أحداً لم يأت.ولم يكتب إليها أحد كلمة واحدة ، لا دليل على أى تعاطف . . بل على العكس فبمجرد أن أذيع خبر الانتحار أسرع كثير من الذين أودعوا أموالهم مصرف جانان إلى منزله واخترقوا الباب ثائرين على الزوجة والأولاد فى وحشية لا ترحم .

وفى خلال بضعة أيام تكدست المصائب عليهم : فقد إنسان عزيز ، إضاعة الثروة كلها . ضاع مركز العائلة وتقدير الناس لهم ، وتخلى عنهم الأصدقاء ، انهيار تام ، لم يعد هناك ما يقيم أودهم .

كانت لهم نفوس طاهرة أبية جعلتهم يقاسون من فضيحة هم منها براء .

أما انطوانيت فقد قاست أكثر من أمها وأخيها لأنها كانت أبعدهم عن المصيبة . وبالرغم مما أصاب مدام جانان وأوليفييه فلم تكن دنيا الأسى هذه بغريبة عليهم كانوا متشائمين بطبيعتهم ، ولذلك لم تفاجئهم المصيبة بقدر ما آلمتهم .

وما أكثر ما كانوا يفكرون فى الموت هرباً من الحياة ، وتسلط عليهم حينئذ ذلك التفكير أكثر من أى وقت مضى ، فأخذوا يتمنون الموت . إنه خضوع مؤسف من غير شك ، ومع ذلك فهو أقل هولا من ثورة أنطوانيت تلك الفتاة الصغيرة الممتلئة ثقة ، السعيدة التى تحب الحياة ، وقد وجدت نفسها فجأة مقهورة أمام يأس لا حد له ، وأمام هذا الموت المفزع .

وفجأة اكتشفت أنطوانيت بشاعة الحياة . تفتحت عيناها فرأت الحياة على حقيقتها ، وعرفت أباها وأمها وأخاها . وبينما أوليفييه وأمه يبكيان كانت هى منفردة مع حزنها ، وأخذت تفكر بعقلها اليائس فى الماضى والحاضر والمستقبل . رأت أن كل شىء قد انتهى بالنسبة إليها لم يعد لها أمل أو سند ، لم يعد لها أحد تعتمد عليه .

وشيعت الجنازة بطريقة مفجعة مخزية : كانت الكنيسة قد رفضت استلام جثة المنتحر . أما الأصدقاء القدامى فقد كانوا من الجبن بحيث تركوا الأرملة وأولادهم اليتامى وحدهم . صديقان أو ثلاثة فقط

هم الذين ظهروا لبضع لحظات، وكانت حالة الضجر التى يبدون بها أشق على نفوسهم من غياب الآخرين. كأنما كان حضورهم مكرمة يقدمونها. كان صمتهم مثقلا بالعتاب وبالشفقة المهينة . ومن جهة أقاربهم فقد كان الأمر أسوأ من ذلك لا لأنهم لم يواسوهم بكلمة واحدة، ولكن لأنهم أخذوا يلقونهم باللوم المرير . وبدا انتحار صاحب المصرف — الذى لم يستطع أن يطفىء الأحقاد — جريمة لا تقل بشاعة عن جريمة إفلاسه . إن البرجوازية لا تغتفر للذين يقتلون أنفسهم ، وتفضيل الموت عن الحياة مهما بلغت من الدناءة يبدو فى نظرها أمراً إدّا ، ولو استطاعت لاستعانت بقسوة القانون على من يبرر انتحاره بقوله :

— ليس هناك شقاء أكبر من العيش بينكم !.

ولم يكن أجبنهم أقل تلهفاً على وصم المنتحر بالجبن. وإن ثورتهم لتشتد عند ما يجدون أن المنتحر — علاوة على انتحاره — قد أضر بمصالحهم وحرمهم من الانتقام لأنفسهم بانسحابه من الحياة . لم يفكروا لحظة واحدة كم قاسى جانان المسكين قبل أن يلجأ إلى الموت. وتمنوا لو تعذب ألف مرة أكثر مما تعذب . ولما وجدوا أنه أفلت منهم اتجهوا بسخطهم نحو ذويه . لم يعترفوا بذلك لأنفسهم لأنهم يعرفون ما فيه من ظلم ، ومع ذلك فما كانوا يمتنعون عن ظلمهم لأنهم كانوا بحاجة إلى ضحية .

وكانت مدام جانان — التى لم تعد تصلح إلا للعويل — تستعيد قوتها عند ما يهاجم زوجها أحد . وحينئذ تكتشف مبلغ حبها له .
واتفق الثلاثة الذين كانوا يجهلون ما يخبئه لهم الغد عن مهر الأم وعن كل ما يملكون لكى يسددوا — بقدر مايستطيعون — ديون الأب .
ثم أصبحوا لا يستطيعون البقاء أكثر من ذلك فى المدينة فقرروا الذهاب إلى باريس .

فى احدى الأمسيات الأخيرة من شهر سبتمبر ، كانت الحقول مختفية وراء الضباب الكثيف الأبيض الذى تطل منه على جانبي الطريق — هيا كل الأعشاب المبتلة وكأنها نباتات مائية — فى تلك الأمسية، أمسية الرحيل ، ذهبوا سويا لوداع مقابر الأسرة . وركع الثلاثة على الحافة الحجرية المحيطة بالقبر الذى لم يمض على ردمه وقت طويل . سالت دموعهم فى صمت وأخذ صوت أوليفييه يتحشرج وأخذت مدام جانان تجفف دموعها فى يأس . كانت تتعذب وتزيد من شقائها بترديد مستمر للكلمات التى قالتها لزوجها فى آخر حديث معه قبل موته . وتذكر أوليفييه حديثه مع أبيه وهما جالسان فى شرفة الحديقة ، بينما كانت أنطوانيت تفكر فيما سيحدث لهم بعد ذلك . ولم يكن فى قلب واحد منهم ظل من اللوم للشقى الذى أضاعهم جميعاً معه . ولكن أنطوانيت أخذت تفكر :

— آه كم سنقاسى يا أبى العزيز !

وبدأ الضباب يتكاثف والرطوبة تنفذ إليهم . ولكن مدام جانان لم تستطع أن تغادر المكان . ورأت أنطوانيت أخاها يرتعش فقالت لأمها :

ـــ أماه ، أنى أشعر بالبرد .

وقاموا من مكانهم . وقبل أن يغادروا المكان استدارت مدام جانان للمرة الأخيرة نحو القبر لتقول :

ـــ يا صديقى المسكين !

وخرجوا من المقابر والليل يرخى سدوله ، وأنطوانيت ممسكة بيد أخيها الباردة ودخلوا المنزل القديم . كانت تلك آخر لياليهم فى العش الذى كانوا ينامون فيه دائماً . حيث انقضت حياتهم وحياة أسرتهم ـــ هذه الجدران ، هذا المأوى ، هذا المربع الصغير من الأرض الذى ارتبطت به مسرات العائلة وأحزانها برباط من الشدة بحيث بدت هذه الأشياء كأنها هى أيضاً من أفراد العائلة ، وكأنها جزء من حياتهم لا يستطيع أن يفرق بينها وبينهم إلا الموت .

كانت الحقائب جاهزه.وكان عليهم أن يأخذوا أول قطارفى اليوم التالى قبل أن تفتح الحوانيت المجاورة أبوابها لكى يتجنبوا فضول الناس وتعليقاتهم المريرة . كانوا بحاجة إلى أن يضم بعضهم بعضا ومع ذلك فقد اتجه كل واحد ـــ بطريقة لا إرادية ـــ إلى غرفته حيث مكث مدة طويلة . . ظلوا وقوفا ، لا يتحركون ولا يفكرون حتى فى خلع القبعات أو المعاطف . وأخذوا يلمسون الجدران وقطع الأثاث وكل ما كانوا على وشك أن يفارقوه ، ويضعون جباههم على زجاج النوافذ ، محاولين أن يحتفظوا فى أنفسهم بتجاوبهم مع الأشياء الحبيبة

إليهم . وأخيراً بذل كل واحد منهم جهده ليفتشل نفسه من انفراده بأفكاره الحزينة واجتمعوا فى غرفة مدام جانان — غرفة العائلة ذات القبوة الكبيرة فى نهايتها — حيث كانوا فيما مضى يجتمعون كل مساء بعد العشاء ، عندما لا يكون فى زيارتهم أحد . . فى الماضى . ! الماضى الذى أصبح يبدو بعيدا بالنسبة إليهم — وظلوا صامتين حول نار الموقد الخافتة . ثم أدوا الصلاة معاً وهم راكعون أمام السرير ، وناموا مبكرين ، فقد كان عليهم أن يستيقظوا قبل الفجر ولكن مضى وقت طويل قبل أن يأتيهم النوم .

وكانت مدام جانان طيلة الليل تنظر إلى ساعتها لعل الوقت قد حان . وفى الرابعة صباحا قامت وأشعلت شمعة . وسمعتها أنطوانيت التى لم تكن قد نامت وقامت هى الأخرى ، أما أوليفييه فقد كان غارقا فى نوم عميق ونظرت إليه مدام جانان بحنان ولم تجرؤ على أيقاظه . وابتعدت على أطراف أصابعها وهى تقول لأنطوانيت :

— يجب ألا تحدثى صوتا ليهنأ الصغير المسكين بآخر لحظاته هنا .

وانتهت الإثنتان من ارتداء ملابسهما ومن تجهيز اللفائف . وحول المنزل كان يخيم صمت الليل البارد المخيف حيث أغرقت كل الأحياء — الإنسان منها والحيوان — فى النوم الدافىء . كانت أسنان أنطوانيت تصطك من البرد وكان جسدها وقلبها قد تجمداً .

ودوى صوت الباب الخارجى فى الهواء المتجمد . كانت الخادم العجوز — ومعها مفتاح المنزل — قد جاءت لتقوم بخدمة العائلة للمرة الأخيرة . كانت قصيرة بدينة ، تضايقها بدانتها وتجعلها تتنفس بصعوبة، ومع ذلك فهى تبدو جد خفيفة فى حركتها بالنسبة لسنها. وتقدمت بوجه تبدو عليه الطيبة ـ وحوله شال من الصوف ـ كان أنفها محمراً من البرد وعيناها تترقرقان بالدموع . وأسفت إذ رأت سيدتها قد قامت من نومها دون أن تنتظرها وأشعلت الفرن فى المطبخ — واستيقظ أوليفييه أثناء دخولها . كانت أول حركة بدرت منه أن عاد فأغلق عينيه ، ولف نفسه فى الأغطية ليواصل النوم . وجاءت انطوانيت لتضع يدها برفق على كتف أخيها وتناديه بصوت خافت :

— أوليفييه — حان الوقت ياصغيرى :

وتنهد وفتح عينيه فرأى وجه أخته قريباً من وجهه . وابتسمت له ابتسامة حزينة ومسحت بيدها على جبينه وقالت له ثانية :

— هيا بنا .

وقام أوليفييه .

وخرجوا من المنزل كاللصوص دون أن يحدثوا ضجة . كان كل واحد منهم يحمل لفائف بين يديه وتقدمتهم الخادم العجوز تدفع حقائبهم أمامها على عربة يد صغيرة . تركوا كل شىء تقريباً ، لم يأخذوا معهم إلا ما تحمله أجسادهم وبعض الملابس الأخرى ، على أن تشحن

لهم فى المستقبل بعض الأشياء التذكارية البسيطة ، كبعض الكتب والصور ، وتلك الساعة القديمة التى اختلطت دقاتها بدقات قلوبهم . كان الهواء لاذعا فى برودته . ولم يكن أحد قد استيقظ بعد فى المدينة . كانت النوافذ مغلقة والشوارع مقفرة . وساروا صامتين ما عدا الخادمة التى أخذت تتحدث وحدها .

وحاولت مدام جانان أن تثبت فى نفسها — للمرة الأخيرة — معالم المدينة التى تذكرها بكل ماضيها .

وفى المحطة لم تستطع مدام جانان أن تتغلب على عزة نفسها ، فاشترت تذاكر السفر بالدرجة الثانية بالرغم من أنها قد قررت الاكتفاء بالدرجة الثالثة ، ولكنها لم تجرؤ على قبول هذا الاذلال أمام اثنين أو ثلاثة من موظفى السكك الحديدية الذين يعرفونها . وتسللت بسرعة إلى مقصورة خالية حبست نفسها فيها مع الصغار . كانوا يرتعدون وهم خلف الستائر خشية ظهور أحد المعارف ولكن أحداً لم يظهر . كانت المدينة قد بدأت تستيقظ ساعة رحيلهم ، وكان القطار خاليا إلا من ثلاثة أو أربعة من القرويين ، ومن بعض الثيران التى أطلت برؤوسها من فوق حاجز العربة وأخذت تخور خواراً حزينا ، وبعد انتظار طويل صفر القطار صفيراً متواصلا ثم اندفع فى الضباب . وأزاح المهاجرون الثلاثة الستائر ، والتصقت وجوههم بزجاج النوافذ ورأوا للمرة الأخيرة مدينتهم الصغيرة التى كاد برجها العتيق ذو الطراز القوطى

ألا يرى من خلال غلالات الضباب ، كانت الربوة مغطاة بالقش، والمراعى يكسوها الجليد الأبيض يتصاعد منه الدخان . وكأنما كان ذلك المنظر حلماً بعيداً لا وجود له. واختفى المنظر عندما انحنى القطار ليخترق جبلا. واطمأنوا إلى أن أحداً لم يعد يراهم، وهنا لم يتمالكوا شعورهم فوضعت مدام جانان منديلها على فمها وأجهشت فى البكاء ، وارتمى أوليفييه على أمه تاركا رأسه على ركبتيها وأخذ يغمر يديها بالعبرات والقبل . أما أنطوانيت فقد أخذت تبكى فى صمت وهى جالسة فى الركن الآخر من المقصورة متجهة نحو النافذة . إن بكاء الثلاثة لم يكن لنفس السبب . فمدام جانان وأوليفييه لم يفكرا إلا فيما تركا وراءهما . أما أنطوانيت فقد كان كل تفكيرها تقريبا متجهاً نحو ما سيحدث لهم بعد ذلك . كانت تلوم نفسها على هذا التفكير وتتمنى لو استطاعت ألا تخرج عن نطاق الذكريات . وكانت محقة فى النظر إلى المستقبل إذ كانت أكثر إمعاناً فى الأمور من أمها وأخيها اللذين أخذا يعقدان الآمال البعيدة على باريس . ولم يكن يدور بخلد أنطوانيت نفسها شىء مما ينتظرهم هنالك، فى باريس، التى لم يزوروها من قبل، وحيث كان لمدام جانان أخت متزوجة من أحد القضاة الأثرياء تعقد عليها كثيراً من الأمل . وعلى كل حال فقد كانت مقتنعة بأن أولادها لن يجدوا صعوبة كبيرة فى أن يكسبوا عيشهم بطريقة شريفة بما تلقوا من تعليم ، وبما لديهم من استعداد فطرى . وكانت — ككل الأمهات — مخطئة فى تقدير إمكانيات أولادها .

وشعروا باكتئاب شديد بمجرد وصولهم باريس . ففى المحطة ذهلوا من تزاحم الناس أمام الباب الخارجى للمحطة . كانت السماء تمطر ، ولم يستطيعوا الحصول على عربة . فكان عليهم أن يسيروا طويلا وهم يحملون لفائفهم الثقيلة التى أنهكت قواهم واضطرتهم إلى التوقف فى منتصف الطريق، معرضين أنفسهم لأخطار العربات ولما تقذفهم به من طين . إن حوذياً واحداً لم يرد على نداءاتهم . وأخيراً بينماهم يضعون لفائفهم على العربة سقطت منهم فى الطين لفـــة من الأغطية . واستغل جهلهم كل من حمال المحطة الذى نقل حقيبتهم ، والحوذى ، وتقاضيا أجراً مضاعفاً . وطلبت مدام جانان إلى الحوذى أن يذهب بهم إلى فندق من تلك الفنادق المرتفعة الأجور على الرغم من رداءتها، والتى تعود القرويون أن يقصدوها متغاضين عن عيوبها لمجرد أن أحد أجدادهم كان يقصدها منذ ثلاثين سنة. واستغلوا أبشع استغلال. قيل لهم إن الفندق ممتلىء فحشدوا جميعاً فى غرفة ضيقة مع أنهم اضطروا إلى دفع أجر غرف ثلاث . ورغبة فى الاقتصاد تجنبوا الأكل على مائدة الفندق ، فطلبوا طعاما متواضعاً كلفهم ثمناً لا يقل عن ثمن غذاء الفندق ولكنه أجاعهم . وهكذا تلاشت آمالهم منذ اللحظات الأولى لوصولهم . وفى أول ليلة قضوها فى الفندق لم يستطيعوا النوم فى تلك الغرفة الرديئة التهوية التى حشدوا فيها . شعروا بالبرد ثم شعروا بالحر

وكادوا يختنقون.كانوا يقفزون لوقع أى خطوات فى الممر ، أو لصوت الأبواب وهى تغلق ، أو الأجراس الكهربائية . وطار صوابهم من أصوات العربات وضجيج سيارات النقل الذى لا ينقطع . وشعروا بالهول إزاء هذه المدينة الضخمة حيث ألقوا بأنفسهم فابتلعتهم .

وفى اليوم التالى أسرعت مدام جانان إلى منزل أختها فى شارع «هوسمان» حيث كانت تسكن شقة فاخرة . كانت تأمل — وإن لم تصرح بذلك — فى أن يعرض عليها السكن فى هذا المنزل حتى تزول الضائقة. وكانت المقابلة الأولى كافية لتشتيت أملها ، فقد كان أفراد أسرة « بوابيه دى لورم » ثائرين لافلاس قريبهم ، خصوصاً الزوجة التى كانت تخشى أن يجلب ذلك لهم العار ويضر بمستقبل زوجها . وكانت ترى فى ارتباط الأسرة البائسة بهم أمراً مشينا يزيد من الأضرار بسمعتهم — أما القاضى فكان تفكيره مماثلا لتفكير زوجته . ولكنه كان على شىء من الطيبة وربما كان على استعداد للمساعدة لولا تدخل زوجته ؛ وإن كان فى قرارة نفسه مرتاحا لموقفها . واستقبلت مدام « بوابيه دى لورم » أختها ببرود شديد تأثرت له مدام جانان ولكنها تغلبت على كبريائها وحدثتهم — بطريقة غير مباشرة — عن الشدائد التى تحيط بها وعما كانت تنتظره منهم . ولكنهم بدوا كأن لم يسمعوا شيئاً . حتى العشاء ، لم يطلبوا منهم أن ينتظروا لتناوله واكتفوا بدعوتهم رسميا لتناول العشاء فى نهاية الأسبوع . ثم أن هذه الدعوة لم تأت عن طريق مدام بوابيت ولكن عن طريق القاضى الذى كان

هو نفسه قد أحرجه استقبال زوجته لهم محاولا أن يخفف من حدة الموقف. فتظاهر بالطيبة نحو مدام جانان وأولادها الذين شعروا بأنه لم يكن صريحا كل الصراحة بل أنانيا شديد الأنانية — وعاد أفراد الأسرة البائسة إلى الفندق . ولم يجرؤوا على تبادل مشاعرهم نحو هذه الزيارة الأولى .

وقضوا الأيام التالية يتجولون فى باريس بحثا عن مسكن وانهكهم صعود الأدوار المرتفعة ، وتقززت نفوسهم لرؤية تلك المساكن تتكدس فيها الأجساد ذات السلالم القذرة والغرف المظلمة التى بدت كئيبة بالنسبة لمنزلهم الكبير فى الريف . وأخذوا يضيقون بهذه الحياة شيئاً فشيئا . وكان تعجبهم الشديد لكل ما يرونه فى الشوارع والحوانيت والمطاعم هو دائما سببا فى استغفال الناس لهم . ولذا كان ثمن كل ما يطلبون يرتفع فجأة ، كأنما كان لديهم القدرة على تغيير كل ما يلمسون إلى ذهب ، إلى ذهب يدفعون ثمنه . وكانوا على درجة هائلة من سوء التصرف عاجزين عن الدفاع عن أنفسهم .

وبالرغم من أن مدام جانان لم يعد لها أمل كبير فى أختها فقد كانت لا تزال تبنى أمالا على دعوة العشاء التى كانوا يستعدون لها بقلوب واجفة ، ولكنهم قوبلوا فيها كمدعوين لا كأقارب . ومع ذلك فإن أصحاب الدعوة لم يكلفوا أنفسهم سوى تكلفهم فى الاستقبال . ورأى أوليفييه وأخته أولاد خالتهما ، كانا فى نفس السن تقريبا

ولكن لقاءهما لم يكن أحسن من لقاء أبيهما وأمهما . كانت الفتاة الصغيرة الأنيقة المعتنية بمظهرها تتحدث إليهم بتدلل وترفع مهذب وطرق مصطنعة مزوقة جعلتهم في حيرة . وكان الابن الصغير في شدة الضيق لاضطراره إلى العشاء مع أقاربه الفقراء وبدا مشمئزا طول الوقت . أما مدام بوابيت فبدت في جلستها مستقيمة لا تتحرك . وبدت — حتى وهي تقدم صحاف الطعام — كأنما تعطي درسا لاختها . وأخذ زوجها يتحدث عن أشياء تافهة ليتجنب الأحاديث الجدية . ولم يخرج الحديث الفاتر عن نطاق الأكل خوفا من الانسياق إلى أي موضوع آخر خاص وخطير . وجاهدت مدام جانان حتى استطاعت أن تجذب الحديث نحو الموضوع الذي يشغل بالها ، ولكن مدام بوابيت دي لورم اسكتتها فجأة بكلمة عابرة فلم تعد مدام جانان تجرؤ على معاودة الحديث في هذا الموضوع .

وانتهى العشاء فدفعت مدام جانان ابنتها إلى أن تعزف على البيانو لتظهر موهبتها . وكانت الفتاة متضايقة لجاء عزفها رديئا . وبدأ الضيق على أفراد أسرة بوابيت وانتظروا أن تنتهي انطوانيت من العزف ونظرت مدام بوابيه إلى ابنتها هي وحركت شفتيها بطريقة ساخرة . ولما استمرت الموسيقى وقتا طويلا عادت مدام بوابيت تتحدث مع مدام جانان في أشياء ليست ذات أهمية . وأخيراً فقدت انطوانيت السيطرة على القطعة الموسيقية عندما لاحظت إنها — في أحد المقاطع — عادت تعزف القطعة من أولها بدلا من اكمالها ، ووجدت إنها لن

تستطيع التقدم أكثر من ذلك فأوقفت العزف بعد أن ختمته بلحنين غير صحيحين ولحن ثالث خاطىء وقال لها السيد بوابيت :

ـــ أحسنت .

وطلب القهوة .

وقالت مدام بوابيت أن ابنتها كانت تأخذ دروسا عند بوجنو . فقالت « الآنسة التي تأخذ دروساً عند بوابيه » :

ـــ رائع جداً يا صغيرتي .

ثم سألت أين درست انطوانيت ؟

وأخذ الحديث يفتر ، فقد استنفد كل ما يمكن أن يقال عن تحف الصالون وعن ملابس مدام بوابيت وابنتها . وأخذت مدام جانان تردد في نفسها :

ـــ حان الوقت للكلام ، يجب أن أتكلم . . .

وانقبضت أساريرها ، فبينما هي تبذل مجهوداً كبيراً وتوشك أن تتكلم إذا بمدام بوابيت تفهمها عرضا ، وبلهجة لا تمت إلى الاعتذار بصلة ، أنهم يأسفون لاضطرارهم إلى مغادرة المنزل عند منتصف الساعة العاشرة تقريبا تلبية لدعوة لم يستطيعوا تأجيلها . وشعر أفراد أسرة جانان بالاهانة فقاموا على الفور ليغادروا المكان وتظاهر أهل المنزل بأنهم يريدون استبقاءهم ولكن ـــ بعد ربع ساعة ـــ سمع جرس

الباب وأعلن الخادم قدوم بعض أصدقاء أسرة بوابيت من الجيران الذين يقطنون فى الطابق الأسفل . وتبادل السيد بوابيت وزوجته النظرات وهمسا إلى الخدم همسات سريعة . ثم تمتم بوابيت بعذر ما وهو يدخل أسرة جانان إلى غرفة مجاورة (كان يريد أن يخفى تماما عن أصدقائه وجود تلك العائلة التى تسىء إلى سمعته ، وأن يخفى وجودها عنده بالذات) . وترك أفراد أسرة جانان فى الغرفة دون موقد يدفئهم كان الأولاد فى ثورة نفسية عنيفة لهذه الاهانات ، فترقرقت الدموع فى عينى انطوانيت ، وأرادت أن تغادر المنزل . فقاومت أمها تلك الرغبة بادىء الأمر . ثم لما طال الانتظار قبلت الرحيل ، فخرجوا ولحق بهم بوابيت فى المدخل بعد أن أخطره الخادم برحيلهم واعتذر لهم ببعض عبارات تافهة متظاهراً بالامساك بهم ، ولكنهم رأوا أنه كان يتعجل رحيلهم . وساعدهم فى ارتداء معاطفهم وشيعهم إلى الباب بابتسامات وتحيات وكلمات رقيقة قالها بصوت خافت ثم أخرجهم — وعند ما عادوا إلى الفندق انفجر الأولاد يبكون من شدة غيظهم وأخذت انطوانيت تضرب الأرض برجليها وأقسمت ألا تزورهؤلاء الناس بعد ذلك أبداً . وانتقلت مدام جانان إلى شقه فى الدور الرابع لمنزل يجاور حديقة النباتات . كانت غرف تلك الشقة تطل على حوش مظلم ذى جدران مشققة . أما غرفة المائدة وغرفة الاستقبال ـ وكانت مدام جانان حريصة على أن يكون لها غرفة استقبال — فتطلان على شارع مزدحم يمر فيه — طيلة اليوم — مركبات الترام البخارية

وعربات نقل الموتى ، فى صف طويل ينتهى فى مقبرة «ايفرى» ؛ ويظل يتسكع فيه بين المقاعد ويتشاجر بأصوات عالية ، بعض الإيطاليين مع ثلة من الأولاد . ولم يكن فى استطاعة أسرة جانان ترك النوافذ مفتوحة بسبب هذه الضوضاء . وفى المساء عند العودة ، كان عليهم أن يشقوا طريقهم بين الأمواج المتلاطمة من الجماهير المتسابقة الذين تفوح منهم رائحة كريهة . وكان عليهم أن يعبروا الشوارع المزدحمة ذات الأرضية الموحلة وأن يمروا بأحـــد حوانيت الخمور القذرة الموجودة بالدور الأرضى من المنزل المجاور ، والتى يقف على بابها عدد من الفتيات البدينات ذوات الوجوه المنتفخة والشعر الأصفر وقد كسون وجوههن بطبقات من المساحيق المختلفة وأخذن يرمقن الناس بنظرات وقحة .

كان المال القليل الذى تملكه الأسرة يذهب سريعا . وأخذوا يراقبون — كل مساء وهم يتحسرون — الثغرة التى بدأت تتسع لتبتلع مالهم . حاولوا أن يحرموا أنفسهم فلم ينجحوا فى ذلك ، أنهم فى حاجة إلى سنوات من التجارب ليتعلموا فن الإدخار ، خصوصاً وأنهم لم يمارسوه منذ الصغر . إن الذين لم يتعودوا التدبير بطبيعتهم يضيعون أوقاتهم إذا حاولوا ذلك . فبمجرد أن تلوح فرصة جديدة للانفاق تراهم يستسلمون لها ويؤجلون التوفير لمرة تالية . ثم عندما يحدث ويربحون أو يعتقدون أنهم ربحوا أقل شىء ممكن يسرعون باستخدام فى ذلك مصروفات يتجاوز مجموعها ذلك الربح بعشرات المرات .

وفى خلال بضعة أسابيع نضبت مواردالأسرة . واضطرت مدام جانان إلى التنازل عن كل ما تبقى لها من كبرياء وذهبت بغير علم أولادها — تطلب مساعدة السيد بوايت . وعملت بحيث تلقاه وحده فى مكتبه وتوسلت إليه أن يمدها بمبلغ بسيط فى انتظار أن يجدوا عملا يعيشون منه . كان بوايت ضعيفاً وإنسانا إلى حد ما ، فوافق بعد أن حاول أرجاء الإجابة إلى وقت آخر،فى لحظة تأثر لم يملك نفسه خلالها قدم لها مائتى فرنك . ومع ذلك فسرعان ما ندم على ذلك خصوصا عندما اقتنع بخطئه أمام زوجته التى غضبت أشدالغضب لضعف زوجها وللمناورات التى تعتبر أن مدام جانان تقوم بها .

وأضاع أفراد أسرة جانان أيامهم يجوبون باريس بحثاً عن عمل .
ولم تستطع مدام جانان بأفكارها التى ورثتها عن بورجوازية الريف الغنية أن تقبل أعمالا — لها أو لأولادها — غير تلك الأعمال التى يسمونها أعمالا حرة . ربما كان ذلك لأن الانسان قد يموت فيها جوعا ولم تكن حتى لتقبل أن تسمح لابنتها بالعمل كمربية لاحدى الأسر .
ولم تكن هناك إلا الأعمال الرسمية فى خدمة الدولة ، التى لا تبدو لها مخله بالشرف . كان عليهم أن يبحثوا عن وسيلة تمكن أوليفييه من إنهاء دراسته ليصبح مدرساً . أما أنطوانيت فقد كانت أمها تود إلحاقها بأحد معاهد التعليم لتعطى فيه دروساً ، أو المعهد العالى للموسيقى تواصل فيه الدراسة حتى تحصل منه على إحدى جوائز البيانو .

أما المعاهد التى لجأت إليها أنطوانيت فقد وجدتها مكتفية بمدرسيها الذين كانوا يحملون مؤهلات لا يمكن أن يقارن بها مؤهل أنطوانيت البسيط وهو كفاءة التعليم . أما عن الموسيقى فكان عليهم أن يعترفوا بأن قدرة أنطوانيت فيها تعتبر عادية إذا قيست بمواهب آخرين لم يكادوا يتمكنون حتى من الظهور . واكتشفت الأسرة تلك المعركة الرهيبة من أجل الحياة . فإن مدينة باريس تستهلك من المواهب الكبيرة والصغيرة استهلاكا جنونيا حتى ضاق بها الأمر وأمست لا تدرى ماذا تفعل بكل هذه المواهب .

وشعر الأخوان بشيء من اليأس وبالغا فى عدم الثقة بمقدرتهما واعتقدا أنهما ليسا على قيمة كبيرة ، وتحمسا فى إثبات ذلك لنفسيهما ولأمهما . أما أوليفييه الذى لم يجد مشقة فى أن يفوز بنصيب الأسد بين زملائه عند ما كان فى مدرسته بالريف فقدحطمته تلك التجارب وبدا كما لو أنه فقد كل ما يملك من مواهب . وألحق بالليسيه وحصل على المجانية . ولكن حدث فى بادىء عهده بالمدرسة أن جاء ترتيبه متأخراً لدرجة أفقدته تلك المجانية . لقد ظن نفسه أبله تماما ، وشعر فى الوقت نفسه بالاشمئزاز نحو باريس ونحو هذه المخلوقات المتزاحمة المتلاحقة ، ونحو نسق زملائه الذى لا يطاق وأحاديثهم الدنيئة وحيوانية البعض ممن لا يتورعون عن أن يتقدموا إليه بعروض بشعة . ولم يكن حتى ليقوى على أن يواجههم بمقدار احتقاره لهم . وكان يشعر بنفسه ذليلا لمجرد التفكير فى مذلاتهم . وأخذ يلجأ مع أمه وأخته إلى الصلوات الحارة التى كانوا يؤدونها معا كل مساء ، وذلك بعد أن ينصرم يوم جديد ملىء باليأس والمهانات . وكانت تلك المهانات وصمة لأولئك الأشخاص ذوى القلوب البريئة لا يجرؤون على التحدث عنها فيما بينهم . ولكن إيمان أوليفييه بدأ يتزعزع شيئا فشيئا عند ما احتك بروح الكفر المنتشرة فى باريس . كان يحدث له ذلك دون أن يشعر به ، كما يحدث لطبقة الجير الحديث أن تتساقط من على الجدران عند ما تنزل عليها الأمطار . كان لا يزال مؤمنا ولكن حيثما اتجه بنظره كان يجد فكرة الألوهية تحتضر .

أما أمه وأخته فأخذتا تواصلان مساعيهما الفاشلة . وعادت مدام جانان لمقابلة أسرة بوابيت التى أرادت التخلص منها ، ومن أولادها فهيأت لها ولأبنتها عملا . عرضوا على الأم أن تعمل « قارئة » لسيدة عجوز تقضى الشتاء فى جنوب فرنسا . أما أنطوانيت فوجدوا لها وظيفة مدرسة خاصة لأسرة من غرب فرنسا تقضى العام كله فى الريف. وبالرغم من أن شروط العمل كانت لا بأس بها فقد رفضته مدام جانان ولم يكن ذلك لشعورها بالذلة من خدمتها للآخرين فحسب ولكن لأنها لم تشأ أن تعرض أبنتها لهذا الهوان لاسيما أن أنطوانيت ستكون بعيدة عنها . ومهما تبلغ بهم التعاسة فلن يفترقوا ، إذ أن هذه التعاسة نفسها هى التى جعلتهم يتمسكون بالبقاء معاً . وحملت لهم مدام بوابيت ذلك على محمل سىء وقالت أنه إذا لم يكن لدى الإنسان الإمكانيات الكافية فعليه ألا يتصنع الكبرياء . ولم تتمالك مدام جانان شعورها فوصمت شقيقتها بقسوة القلب فتفوهت مدام بوابيه ببعض العبارات الجارحة عن الإفلاس وعن المال الذى تدين به مدام جانان . افترقا فراقا لا لقاء بعده أبداً ، وانقطعت العلاقات تماما بينهما . وأصبحت مدام جانان وليس لها إلا هم واحد ، وهو أن ترد لأسرة بوابيت المال الذى اقترضته منهم ولكن ذلك لم يكن فى استطاعتها .

استمرت المحاولات بدون جدوى .. وذهبت مدام جانان لمقابلة نائب منطقتها البرلمانى وشيخها ، وكان جانان قد أدى لهما كثيرا من الخدمات ، ولكنها قوبلت فى كل مكان بالأنانية ونكران الجميل ،

أن نائب المنطقة لم يعتن حتى بالرد على خطاباتها وعندما جاءت تطرق بابه أرسل إليها من يبلغها عدم وجوده . أما عضو الشيوخ فقد حدثها حديثاً فيه غلظة مظهراً أسفه لمركزها الذى عزاه إلى جانان الحقير ولامه على انتحاره لوما عنيفاً . ودافعت مدام جانان عن زوجها ـ فأردف الشيخ قائلا أنه يعرف جيداً أن جانان لم يتصرف عن قلة شرف ولكن عن غباء ، وأنه كان إنسانا ساذجا وشبهه بخنفس حقير ، لا يريد أن ينفذ إلا ما يدور برأسه ، دون استشارة أحد ويأبى دون استماع إلى أية نصيحة . ولو كانت المصيبة حلت به وحده لكان ذلك خيراً ولما كان لأحد أن يقول شيئاً ، أما أن يلقى بزوجته وأولاده إلى البؤس يزرعهم فيه ويتركهم يتصرفون حسبما يستطيعون ، ناهيك عما أحدث من أضرار بالغة أخرى ، فذلك أمر تستطيع مدام جانان أن تغفره له إذا كانت قديسة ، أما هو ، عضو مجلس الشيوخ الذى ليس بقديس والذى يكفيه أن يكون رجلا عاقلا رزيناً فليس لديه أى مبرر ليغفر له : فإن الشخص الذى ينتحر فى مثل هذه الأحوال إنسان حقير . ظرف واحد يستطيع أن يخفف الجرم بالنسبة لجانان ، وذلك أنه لم يكن مسئولا تماما عن الأحداث التى دفعته إلى الانتحار .

وهنا اعتذر عضو الشيوخ لمدام جانان لاندفاعه فى الحديث

عن زوجها وعزا ذلك إلى عطفه عليها . ثم فتح درج مكتبه وأخرج منه ورقة مالية من ذات الخمسين فرنكا وقدمها لها — كما لو كانت صدقة — فرفضتها .

وبحثت عن عمل فى مكاتب إحدى المصالح الكبرى وذهبت كل محاولاتها عبثا وبدون نتيجة . وكلما استجمعت قواها لتحقق خطوة ما عادت مثبطة الهمة لدرجة لا تستطيع معها الحركة عدة أيام ، ثم عندما تقرر معاودة الكرة تكون الفرصة قد فاتت . ولم تكن أكثر حظاً عند رجال الكنيسة ، ربما لأنهم لم يجدوا لهم مصلحة فى مساعدتها ، أو لأنهم لم يهتموا بأمر أسرة مفلسة اشتهر عائلها بعدوانه لرجال الدين . وكل ما استطاعت مدام جانان أن تحصل عليه بعد جهود كبيرة هو عمل فى إحدى مدارس الراهبات كمدرسة للبيانو : عمل غير مجز وذو أجر يثير السخرية . ولكى تزيد دخلها قليلا أخذت تقوم بنسخ الأوراق مساء كل يوم لأحد المكاتب . كانت تعامل بقسوة وبالرغم من مثابرتها فقد كان خطها وذهولها الذى يجعلها تنسى كلمة أو سطراً (لانشغال بالها بأشياء أخرى كثيرة) سبباً فى ملاحظات جارحة . وبعد أن تدمى عينيها وبعد أن ينحنى ظهرها من كثرة الكتابة حتى منتصف الليل ، ترفض النسخة التى كتبتها ، وتعود إلى المنزل مضطربة . كانت تقضى أياما تتألم فيها دون أن تهتدى إلى حل ما . وكانت منذ زمن طويل تشكو مرضا بالقلب زادت المحن من

خطورته فأوحى إليها ذلك بإحساسات مخيفة . كانت تعتريها أحياناً حالات من الخوف ، وتشعر باختناق كأنها على وشك أن تموت . ولم تعد تغادر منزلها إلا ومعها اسمها وعنوانها ، خشية أن تسقط فى الطريق . ماذا يحدث لو اختفت عن الحياة ؟ كانت انطوانيت تعاونها بقدر الإمكان ، مصطنعة الاطمئنان وهى غير مطمئنة . كانت تتوسل إليها أن تحافظ على صحتها وتتركها لتعمل بدلا منها . ولكن مدام جانان كانت تعمل بما تبقى لها من كبرياء ، على الأقل حتى لا تلقى ابنتها أبداً تلك المهانات التى كان عليها هى أن تقاسيها .

وحاولت أن ترهق نفسها فى العمل وأن تقلل من النفقات ، ولكن على غير طائل ، إذ أن دخلها كان لا يكفى مطالب العيش فاضطرت أن تبيع بعض الحلى التى تبقت لها . ومما آلمها حقا أن ثمن تلك الحلى ، وقد كانت أشد ما تكون حاجة إليه ، سرق منها فى نفس اليوم الذى حصلت فيه عليه . فقد خطر ببال المسكينة التى كانت دائمة الشرود أن تنتهز الفرصة وتدخل محل « بون مارشيه » — وكان فى طريقها — لتشترى هدية صغيرة لانطوانيت بمناسبة عيد ميلادها . كانت ممسكة بحافظة نقودها بيدها حتى لا تضيع منها ، وبحركة آلية وضعتها لحظة على المنضدة لتفحص شيئاً ما ، فتفقدت الحافظة فإذا بها اختفت — وكانت تلك آخر لطمة .

وبعد بضعة أيام ، فى إحدى الأمسيات الأخيرة الخانقة من شهر

أغسطس وكان الضباب الكثيف يسير متثاقلا فوق المدينة ، عادت مدام جانان من عملها فى مكتب النسخ حيث كان عليها أن تسلم بعض الأوراق المستعجلة . ولما وجدت نفسها قد تأخرت عن موعد العشاء ، أسرعت فى مشيتها إلى حد الإرهاق لكيلا يشعر أولادها بالقلق عليها . وعندما وصلت إلى مسكنها بالدور الرابع لم تعد تستطيع أن تتكلم أو تتنفس . لم تكن تلك أول مرة تغدو فيها على مثل هذه الحال ، حتى لقــــد اعتاد ولداها على رؤية ذلك . وبمجرد وصولها تحاملت على نفسها لتجلس معهما إلى المائدة . وكان أوليفييه وانطوانيت متضايقين من شده الحر لدرجة لم يستطيعا معها تناول الطعام . كان عليهما أن يبذلا مجهودا لابتلاع بعض قطع من اللحم وبعض جرعات من الماء الذى لا طعم له وذلك على كره منهما . ورغبة منهما فى أن يتركا لأمهما الفرصة لتستعيد قواها كفا عن الحديث ، وما كان عندهما ميل إليه ، وأخذا ينظران ناحية النافذة .

وفجأة اهتزت مدام جانان وتشبثت بالمائدة ونظرت إلى ولديها ثم أصدرت أنيناً ، ثم انهارت . واندفع أوليفييه وانطوانيت فى الوقت المناسب ليتلقاها كل منهما بين ذراعيه فأخذا يصرخان ويستنجدان كالمجانين :

ـــ أماه ، أماه الحبيبة .

ولكن الأم لم تعد تجيب ، فطار صوابهما ، وضمت انطوانيت أمها بحركة عصبية وهى تقبلها وتناديها . وفتح أوليفييه باب الشقة وصرخ :

— النجدة !

وصعدت زوجة البواب سلم المنزل قفزاً ، وعندما تبينت الأمر أسرعت لتستغيث بطبيب من الجيران . ولكنه لم يستطع عند وصوله أن يعمل شيئاً وقرر أن كل شىء قد انتهى . كان الموت — لحسن حظ مدام جانان — مفاجئاً . (ولكن من يستطيع أن يعرف ما كان يدور بخلدها — فى لحظاتها الأخيرة — وهى ترى نفسها تموت تاركة ولديها وحيدين للشقاء ! ..)

وتحملا وحدهما شناعة الكارثة ، وبكيا وحدهما ، واشرفا وحدهما على الترتيبات البشعة التى تتبع الوفاة . كانت زوجة البواب امرأة طيبة فساعدتهما قليلا وتلقيا من مدرسة الراهبات حيث كانت تعمل أمهما بعض عبارات فاترة من المواساة .

وغمر اليأس لحظاتهما الأولى بشكل لا يوصف . ولم ينقذهما من اليأس إلا تماديهما فيه مما أدى بأوليفييه إلى حالات تشنجية حقيقية . وشغلت أنطوانيت عن الام نفسها ولم تعد تفكر إلا فى أخيها . وتغلغل حبها العميق فى نفس أوليفييه وانتشله من الحالات النفسية الخطيرة حيث كاد الألم أن يودى به ، واقترب الصغيران معاً إلى جانب السرير الذى كانت ترقد أمهما عليه ، تحت ضوء مصباح خافت ، وأخذ أوليفييه يردد أنه لابد من الموت ، لابد من أن يموتا سوياً وأن يموتا فى الحال . وأشار إلى النافذة وشعرت أنطوانيت أيضاً بهذه الرغبة المنحوسة ولكنها قاومتها فقد كانت تريد الحياة ...

— لماذا ؟

وأجابت أنطوانيت وهى تشير إلى أمها :

— من أجلها . أنها ما تزال معنا . فكر ... بعد كل ما قاست من أجلنا يجب أن نوفر عليها ألم رؤيتنا نموت تعساء . ثم تنهدت بانفعال

وهى تضيف) يجب إلا نستسلم هكذا .. أنى أرفض .. أنى أثور أخيراً .. أريدك أن تصبح سعيداً فى يوم من الأيام .

ـ محال !

ـ نعم ستصبح سعيداً . لقد لقينا من المصائب أكثر مما نحتمل ، ولكن ذلك سيتغير ، يجب أن يتغير ، ستكون نفسك وستصبح لك أسرة ، ستظفر بالسعادة ، أنى أريد ذلك ، أنا أريده !

ـ كيف نعيش ؟ لن نستطيع ذلك أبدا .

ـ سنستطيع ذلك ، ماذا يلزمنا ؟ أن نتمكن من البقاء حتى تكسب أنت عيشك . أنى أتكفل بهذه المهمة ، وسترى أنى سأتمكن من ذلك . . آه لو كانت أمى تركتنى أعمل لكنت الآن استطعت ...

ـ ماذا تريدين أن تفعلى ؟ لا أريدك أن تأتى أفعالا مشينة . وعلى كل حال لن تستطيعى .

ـ أستطيع .. وليس هناك ما يشين فى كسب العيش عن طريق العمل ما دام شريفاً . أرجوك إلا تقلق يا أوليفييه . سترى أن كل شىء سيسوى وأنك ستصبح سعيداً ، فنحن الإثنين سنصبح سعيدين يا أوليفييه ، وأيضاً أمنا ، ستصبح سعيدة بنا . .

وسارا وحدهما وراء نعش أمهما . كانا قد اتفقا فيما بينهما على إلا يقولا شيئاً لأسرة بوابيه ، إن أفراد هـــذه الأسرة لم يعد لهم وجود بالنسبة إليهما فقد اظهروا منتهى القسوة نحو أمهما وكانوا سبباً من أسباب موتها .

ولما سألتهما زوجة البواب إذا كان لهما أقارب آخرون أجاباها :
— لا أحد .

وصليا أمام القبر المفتوح وقد أمسك كل منهما بيد الآخر . وتجلدا وفضلا فى إصرار وكبرياء، يائسين، الوحدة على وجود أقارب منافقين لا يهتمون بهما . . وعادا مشيا على الأقدام وسط هذا الجمهور الغريب عن حزنهما ، الغريب عن أفكارهما ، الغريب عن وجودهما كله . هـــذا الجمهور الذى لا يربطه بهما إلا اللغة التى يتحدثان بها . وتأبطت أنطوانيت ذراع أوليفييه أثناء عودتهما .

واستأجرا شقة صغيرة فى الطابق الأخير من المنزل ، مكونة من حجرتين علويتين ، وحجرة صغيرة ، كان عليهما أن يستعملاها كغرفة للطعام ، ومطبخ لا يزيد حجمه على حجم دولاب مطبخ . كان فى إمكانهما إيجاد مسكن أفضل من هذا فى حى آخر ، لولا أنهما كانا يشعران أنهما هنا لايزالان مع أمهما، وأظهرت لهما امرأة البواب اهتماما مبعثه الشفقة . ولـكن سرعان ما شغلت عنهما بأعمالها الخاصة . ولم يعد أحد يهتم بهما . إن أحداً من سكان المنزل لا يعرفهما ، ولا هما كانا يعرفان من يسكن بجوارهما .

وتوصلت أنطوانيت إلى العمل محل أمها كمدرسة للموسيقى بمدرسة الراهبات ، وبحثت عن دروس أخرى تعطيها إلى جانب عملها . فقد كان كل همها أن تربى أخاها حتى يستطيع أن يلحق بمدرسة المعلمين .

قررت ذلك وحدها . درست البرامج ، قامت بالاستعلام ، ثم حاولت أن تحصل أيضاً على رأى أوليفييه ولم يكن لأوليفييه رأى قط . كانت هى التى اختارت له ، فإن قبوله بمدرسة المعلمين يضمن له عيشه بقية حياته ويصبح سيد مستقبلة . كان يجب أن يصل إلى تلك المدرسة وكان على الاخوين أن يعيشا مهما كلفهما ذلك حتى يصل أوليفييه إلى هدفه بعد خمس سنوات أو ست مليئه بالقسوة ولكنهما سوف يتغلبان عليها . وقويت هذه الفكرة لدى أنطوانيت حتى اقتنعت تماما بها . إن حياة البؤس والوحدة التى كانت مقبلة عليها والتى رأتهابوضوح تمر أمامها لن تكون محتملة إلا بفضل حماستها الشديدة الملحة عليها فى أن تنقذأخاها وأن تجعله يصبح سعيداً حتى ولو لم يعد فى استطاعتها هى أن تصبح سعيدة . هذه الفتاة الصغيرة الساذجة العطوفة التى لم تتجاوز السابعة عشر أو الثامنة عشر من عمرها .. تغيرت تماما بعد أن اتخذت قرارها الباسل . كانت تشتغل رغبة فى التضحية وتزداد كبرياء أمام الصراع . ولم يكن فى استطاعة أحد أن يتصور مثل هذه المشاعر. هى نفسها كانت آخر من يستطيع تصورها . فى هذه الفترة الحرجة من حياة المرأة التى تشبه أول أيام الربيع النابضة بالحرارة ، حيث تسيطر عاطفة الحب على الانسان وتغمره — كأنه نهر خفى يصطخب فى بطن الأرض — تلك العاطفة التى تلفه وتغرقه وتتركه فى حالة دائمة من الوسوسة، فى هذه الفترة يأخذ الحب مختلف الأشكال إن من تسيطر عليه قوى الحب لا يطلب إلا أن يهب نفسه ويقدمها قربانا ، ملتمسا

لذلك شتى الإعذار . ولذا فإن المشاعر الغريزية البريئة العميقة كثيراً ما تتطور إلى تضحيات . وهكذا جعل الحب من أنطوانيت فريسة للصداقة .

أما أخوها — ولم يكن شديد العاطفة مثلها — فلم تتملكه تلك القوى الدافعة . وعلى أى حال فقد كانت التضحية من أجله هو ، ولم يكن هو الذى يقوم بالتضحية — وهذا أمر أيسر وأكثر لذة بالنسبة لمن يحب . بل على العكس من ذلك كان أوليفييه يشعر بتأنيب الضمير عندما يرى أخته وقد أضناها التعب،كان يصرح لها بذلك فترد عليه بقولها :

— آه يا صغيرى المسكين ، ألا ترى أن هذا هو الذى يجعلنى أعيش ؟ وهل هناك دافع لى غير ذلك التعب الذى أبذله من أجلك ؟

كان يفهم ذلك جيداً . ولو كان محل أنطوانيت لحرص أيضاً على هذا التعب المحبب إلى النفس .. أما أن يكون هو سبب ذلك التعب ..!

إن كبرياءه وقلبه ليتألمان لذلك . ويا له من عبء مضن بالنسبة إلى إنسان ضعيف مثله أن يتحمل المسئولية التى أثقل بها كاهله . كان لزاما عليه أن ينجح مادامت أخته قدقامرت بحياتها على هذا الأمل . لم يكن أبداً ليستطيع أن يتحمل مثل هذه الفكرة التى بدلا من أن تضاعف قواه ، كانت تضنيه فى بعض الأحيان . ومع ذلك فقد أرغمته تلك الفكرة على أن يقاوم ، على أن يعمل ، وعلى أن يعيش ، وهذا

ما لم يكن فى مقدرته لو لم يجد نفسه مضطرا إليه . كان لديه استعدادا للهزيمة — وربما للانتحار — بل ربما انتهى إلى ذلك لو لم تكن أخته قد أرادت له الطموح والسعادة . وكان يؤلمه أن يخضع لغير طبيعته ومع ذلك فقد كان هو السبيل الوحيد إلى إنقاذه . كان هو أيضاً يجتاز مرحلة خطيرة من الحياة ، هذه المرحلة المخيفة التى يسقط فيها ملايين من الشبان الذين يستسلمون لخداع حواسهم ، ويضحون نهائيا بكل حياتهم فى سبيل عامين أو ثلاثة من الملذات . ولو وجد أوليفييه متسعا من الوقت يستسلم فيه لأفكاره لوقع فى اليأس أو الانحلال. كان كلما وجد فرصة يتأمل فيها نفسه انشغل بأوهامه المريضة ، بالنفور من الحياة ، من باريس، من اختلاط هؤلاء الملايين من البشر اختلاطاً تفوح منه رائحة عفنة . ولكن كان مجرد رؤيته لأخته كفيلا بتبديد هذا الكابوس ، وبما أنها لا تعيش إلا من أجله فسيقبل الحياة ، نعم سيصبح سعيداً على الرغم منه ...

وهكذا شيدت حياتهما على أساس من إيمان عميق قوامه التصوف والتدين والطموح الرفيع . واتجه الاخوان بكل كيانهما نحو هذا الهدف الأوحد : نجاح أوليفييه . قبلت انطوانيت أن تقوم بأى عمل، رضيت بالمذلات جميعاً : اشتغلت مدرسة للأطفال فى بيوت عوملت فيها معاملة تشبه معاملة الخدم ، كان عليها أن تحرس تلميذاتها فى نزهاتهن كأنها خادمة ، وأن تسير معهن ساعات طوالا فى الطرقات ، على زعم أنها تعلمهم اللغة الألمانية . إن حبها لأخيها ، وكبرياءها أيضاً ، جعلاها تجد عذوبة فى هذه الآلام النفسية وفى تلك المتاعب .

كانت تعود إلى المنزل مرهقة لتعنى بأوليفييه الذى كان يقضى يومه فى الليسيه (كنصف داخلية) ولا يعود منها إلا فى المساء . وكانت تعد العشاء على موقد غازى أو على موقد كحولى. وكان أوليفييه لا يشعر بالجوع أبدا يتأفف من كل شيء ويسبب له اللحم النفور ، وكان لا بد من دفعه على الأكل أو التحايل عليه بأصناف لذيذة تعجبه . ولم تكن أنطوانيت المسكينة طاهية ماهرة ! وكم كان يكدرها — بعد أن تبذل كل جهودها فى إعداد الطعام — أن يصرح أمامها أن طعامها لا يؤكل ، ولم تصل إلى نتيجة ما إلا بعد أن يئست مرات عديدة أمام موقدها فى المطبخ — هذا اليأس الصامت الذى تعرفه

ربات البيوت الصغيرات غير الماهرات يسمم أيامهن وأحياناً لياليهن دون أن يشعر أحد بأمرهن .

وبعد العشاء ، وبعد أن تنتهى انطوانيت من تنظيف الأوانى القليلة التى استعملاها (وكلما حاول أخوها مساعدتها أبت ذلك) تبدأ فتهتم بدروس أخيها اهتمام الأم بولدها فتستذكر له تلك الدروس وتراجع واجباته ، بل تساعده أيضاً فى بعض أبحاثه . وهى حريصة على ألا تجرح شعور هذا الإنسان الصغير الشديد الحساسية .

كانا يقضيان الأمسية حول المنضدة الوحيدة التى يملكانها والتى يستعملانها للطعام والكتابة معا . وبينما كان أوليفييه يكتب واجباته كانت هى تقوم بالحياكة أو تنسخ بعض الأوراق . وعندما يكون نائماً تهتم باصلاح ملابسه أو تؤدى بعض أعمالها هى .

وبالرغم مما يصادفهما فى تصريف أمورهما من عقبات فقد قررا أن كل ما ينجحان فى إدخاره سيستخدمانه — قبل كل شىء — فى التحرر من الدين الذى كانت أمهما قد اقترضته من أسرة « بوبيه » مع أنهما فى الواقع لم يشعرا بأن أسرة بوابيه من أولئك الذين يلاحقون مدينيهم بمضايقاتهم ، بل أن أحداً منهم لم يحاول رؤية « الجانان » ، وأصبحوا لا يفكرون فى هذا المال الذى ظنوه قد فقد نهائيا ، كانوا يعتبرون أنفسهم فى منتهى السعادة إذ تخلصوا من أقاربهم المحرجين بهذا الثمن . ولكن كبرياء الولدين وعاطفة البنوة عندهما

جعلتهما يتألمان أن تكون أمهما مدينة بشيء لهؤلاء الناس الذين يحتقرانها . لقد حرما نفسيهما وأدخرا على حساب أبسط ما يحق لهما من تسليات ، وعلى حساب ملابسهما وطعامهما حتى يصلا إلى جمع المائتى فرنك ، وهو مبلغ هائل بالنسبة إليهما . وودت أنطوانيت لو حرمت نفسها وحدها . ولكن عندما اكتشف أخوها عزمها لم يمنعه شيء من أن يحذو حذوها . وأضنيا نفسيهما فى سبيل هـذه الغاية وكان يسعدهما أن يدخرا بضعة سنتيمات كل يوم .

وتحملا شدة الحرمان فتوصلا إلى جمع المبلغ (سنتيما بعد سنتيم) فى مدة ثلاث سنوات . وكانت فرحة كبيرة . ذهبت انطوانيت فى إحدى الأمسيات إلى أسرة بوابيه واستقبلت بدون ترحيب . فقد ظنوا أنها جاءت تطلب المساعدة . ورأوا من المستحسن لهم أن يبادروا بلومها بطريقة جافة لأنها لم تزودهم بأى أخبار عن أسرتها ولم تبلغهم حتى عن نبأ وفاة أمها ، ولأنها لا تأتى إلا حينما تكون فى حاجة إليهم. وقاطعتهم قائلة أنها لا تنوى إزعاجهم وإنما أتت لتعيد إليهم ما اقترضته أمها منهم . ووضعت الورقتين الماليتين على المنضدة وطلبت منهم مخالصة بالدين . وفى الحال تغيرت معاملتهم وتظاهروا بعدم رغبتهم فى قبول المبلغ . كانوا يشعرون نحوها بهذا النوع من العطف الفجائى الذى يشعر به الدائن نحو المدين عندما يرد إليه — بعد سنوات — دينا فقد الأمل فيه . وحاولوا أن يعرفوا أين كانت تسكن مع أخيها

وكيف يعيشان وتجنبت الرد وعادت تطالب بالإيصال ثم قالت بأنها متعجلة وحيتهم تحية بارده ثم انصرفت وشعر أفراد الأسرة بغضب شديد نحو هذه الفتاة الناكرة للجميل .

ولما وجدت أنطوانيت نفسها قد تحررت من هذا الكابوس عادت لتواصل حياة الحرمان ، ولكن من أجل أوليفييه هذه المرة كانت تفرط فى إخفاء ذلك حتى لا يراها أخوها وأخذت تدخر على حساب زينتها وأحيانا على حساب طعامها من أجل مظهر أخيها وتسليته ، ولكى تزين له الحياة وتجعلها أكثر عذوبة . فعلت ذلك أيضاً لتمكنه بين وقت وآخر من الذهاب إلى الحفلات الموسيقية بل إلى الأوبرا التى يعتبرها سعادته الكبرى . وما كان يرغب فى الذهاب إلى تلك الحفلات بدون أخته ولكنها كانت تخلق أعذاراً تتخلص بها من الذهاب معه تريح بها ضميره . كانت تدعى أنها جد متعبة أو أنها لا تشعر بالرغبة فى الخروج ، وإن تلك الحفلات تضايقها . ولم يكن ليصدق هذه الأكاذيب التى يولدها حب أخته له ، ولكن أنانية الصغر كانت تتغلب فى نهاية الأمر . كان يذهب إلى المسرح وما يكاد يجلس هناك حتى تعاوده هواجسه كان يفكر فيها طيلة العرض فيفسد عليه ذلك سعادته ، وفى يوم أحد أرسلته أخته لحضور حفلة موسيقية فى مسرح « الشاتيليه » فإذا به يعود بعد نصف ساعة قائلا لها أنه لم يجد الشجاعة — وقد وصل إلى كوبرى سان ميشيل — لأن يواصل

طريقه . لم تعد تلك الحفلة الموسيقية تعجبه إذ أنه أصبح يتألم كثيراً لعـــدم مشاركتها إياه السرور . ولم يكن هناك شيء أحب إلى نفس أنطوانيت مما سمعت ، على الرغم من أسفها لحرمان أخيها — بسببها — من تسلية يوم الأحد . ولكن أوليفييه لم يفكر فى هذا الأسف . وحين رأى — عند عودته — وجه أخته يتهلل بفرحة تحاول دون جدوى أن تخفيها ، شعر بأنه أكثر سعادة مما لو كان قد استمع إلى أجمل موسيقى فى العالم . وقضيا فترة مابعد الظهيرة ، جالسين ، كل أمام الآخر ، إلى جانب النافذة ، هو بكتاب فى يده وهى بأشغال الابرة ، لا هو يقرأ ولا هى تعمل ولكنهما كانا يتحدثان عن أشياء تافهة لاتهمه ولاتهمها . ومع ذلك فلم يجدا أجمل من هذا الأحد . واتفقا على ألا يعودا إلى الافتراق من أجل حفلات الموسيقى ، فقد أصبح كل منهما عاجزاً عن الحصول على السعادة بمفرده .

ونجحت فى أن تدخر فى الخفاء مايكفى من المال لتفاجىء أوليفييه بأن تقدم له بيانو تؤجره له . وبطريقة تقسيط معينة يصبح ملكا خالصاً لهما فى خلال عدّة شهور . ويا له من حمل ثقيل أضافته إلى حملها ! إن هذه الاستحقاقات كانت أحياناً كالكابوس بالنسبة إليها ، كانت تفسد صحتها بحثاً عن المال اللازم ، ولكن كم حققت لهما هذه الفعلة الجنونية من سعادة ، فالموسيقى كانت جنّتهما فى هذه الحياة القاسية ، لقد احتلت مكاناً ضخماً من حياتهما ولاذا بها لينسيا متاعب

الدنيا ، ولم يكن ذلك بدون خطر فالموسيقى من أمضى المؤثرات الحديثة على النفس البشرية إنها تملأ النفس بخمول دافىء أو بما يشبه جو الخريف المثير فتهيج المشاعر وتقضى على الارادة ، ولكنها كانت متنفسا لروح مكرهة على عمل مفرط لابهجة فيه مثل عمل انطوانيت.
إن حفلة الأحد الموسيقية كانت الضوء الوحيـــد الذى يتلألأ بعد أسبوع من العمل المتواصل . كان يعيشان على ذكرى آخر حفلة موسيقية ذهبا إليها ، وعلى أمل الحفلة المقبلة ، على هاتين الساعتين أو الثلاث ساعات التى يقضيانها على هامش الزمن ، بعيدا عن باريس. وفى انتظار طويل خارج المسرح ، تحت المطر أو الثلج المتساقط ، فى البرد أو الهواء جنباً إلى جنب ، وهما يرتعدان خوفاً من ألا يجدا أماكن ، كانا يسارعان بالدخول إلى المسرح ويجلسان فى اماكن ضيقة مظلمة حيث يضيعان وسط الزحام . كانا يختنقـان ويدهمهما الناس ويكاد ان يغمى عليهما من شدة الحر والضيق ، ولكنهما كانا سعيدين ، وكان كل منهما سعيداً بسعادته وسعادة الآخر ، وكم كان يسعدهما أن يمتلىء قلباهما بالمحبة والنور والقوة التى تتدفق من روح « بيتهوفن» وروح «واجنر» الكبيرتين . كان كل منهما سعيداً بأن يرى وجه أخيه يضىء ، تلك الوجوه التى أضناها التعب والهموم السابقة لأوانها . وكانت أنطوانيت تشـــعر بمنتهى التعب فتلقى بنفسها فى العش الدافىء اللذيذ ـ كأنما هى بين يدى أم تضمها إلى صدرها وتبكى فى صمت ، فيأخذ أوليفييه يضغط على يدها . لم يكن أحد ليلتفت

إليهما فى ظلام المسرح الضخم الذى لم يكونا الوحيدين فيه بين الأرواح المعذبة التى تلجأ إلى حنان الموسيقى الذى يشبه حنان الأم .

كانت انطوانيت متدينة إلى درجة كبيرة إذ أن الدين — إلى جانب الموسيقى — كان يعينها على الحياة . لم يفتها أبدا أداء صلوات طويله حارة كل يوم كما لم تهمل الذهاب إلى الكنيسة كل أحد . ووسط حياة مليئة بتعاسة ظالمة لم تستطع أن تمنع نفسها من الايمان بحب الصديق الإلهى الذى يتألم معنا والذى سيواسينا فى يوم من الأيام . وكانت على صلة قوية مع من فقدتهم ، صلة كانت أقوى من صلتها بالله ، اشركتهم معها سراً فى كل محنها ، ولكنها كانت ذات روح متحررة ، وعقل قوى مما جعلها تبتعد عن باقى الكاثوليك الذين كانوا ينظرون إليها نظرة بعيدة عن الرضى ، والذين وجدوا فيها روحا شريرة وأوشكو أن يعتبروها ملحدة أو فى طريق الالحاد لأنها باعتبارها فرنسية حقيقية لم تقبل أن تتخلى عن حرية تفكيرها . لم يكن إيمانها — عن انقياد كالقطيع الحقير — ولكن كان عن محبة .

أما أوليفييه فلم يعد مؤمنا فإن تفتت إيمانه البطىء الذى بدا منذ حضوره إلى باريس فى الشهور الأولى قد أتى على ذلك الإيمان كلية . تعذب لذلك كثيراً لأنه لم يكن من هؤلاء الذين هم من القوة أو أولئك الذين هم من الضعف بحيث يستغنون عن الإيمان ، لذلك اجتاز أزمات نفسية شديدة ، ولكنه كان يحتفظ بقلب متصوف ، ومهما وصل به

الالحاد فإن فكرة مالم تكن أقرب إليه من فكرة أخته عن الإيمان. ولذا عاش الاثنان فى جو دينى . كان كل منهما يعود فى المساء بعد افتراقهما طيلة اليوم فتبدو لهما شقتهما الصغيرة كالميناء ، كالملجأ الحصين فقيرة باردة إلا أنها طاهرة بالرغم من ذلك . لكم كانا يشعران وهما فيها بأنهما بعيدان عن أفكار باريس الفاسدة !...

ولم يتعودا التحدث كثيراً فيما يكونان قد أتياه من أعمال : فعندما يعود الإنسان منهمكا إلى منزله لا يملك القوه ليعيش يومه الشاق مرة أخرى وهو يتحـــدث عنه ، بل هما يحاولان جهدهما — بطريقة لا إرادية — أن ينسيا معاً هذه الأعمال . وكانا يحرصان على عدم إلقاء الأسئلة خصوصاً فى الساعة الأولى لعودتهما عندما يلتقيان على العشاء . كانا يتبادلان التحية بالنظر ، وأحيانا لا ينطقان بكلمة واحدة أثناء الطعام ، وتنظر انطوانيت إلى أخيها الذى يترك طعامه ويستسلم لأحلامه — كما كان يفعل من قبل — عندما كان صغيراً ، وتداعب يده بلطف وتقول وهى تبتسم :

— هيا ! تشجع !

فيبتسم ويستأنف طعامه . وينتهى العشاء دون أن يبذلا أى محاولة للحديث . كانا متعطشين إلى الصمت ولا تنحل عقدة ألسنتهما إلا فى نهاية الطعام وذلك عندما يشعران بالراحة ويكون كل منهما — وقد أحاطت به عاطفة الأخوة — قد أزال عن نفسه آثار النهار البغيضة .

ويجلس أوليفييه أمام البيانو . وقد تعودت انطوانيت على أن تترك البيانو ليعزف هو عليه ، إذ كان تسليته الوحيدة ، فاستسلم له بكل ما فيه من قوة .

لقد خلق للموسيقى : إن طبيعته الأنثوية التى تؤهله لأن يحب لا لأن يعمل ، كانت تمتزج بأفكار الموسيقيين الذين يعزف لهم ، وتذوب مع تلك الأفكار ، وتؤدى أدق معانيها باخلاص ينبعث من العاطفة ، بقدر ما تسمح له — على الأقل — ذراعاه وطبيعته الضعيفة ، فكان ينهكه المجهود الهائل الذى يستلزمه عزف موسيقى « تريستان » أو «السونات» الأخيرة لبيتهوفن . وهكذا كان يفضل الالتجاء إلى موسيقى « موزار » و « جلوك » التى كانت انطوانيت تفضلها هى الأخرى .

وأحيانا كانت تغنى هى أيضاً ولكن أغنيات بسيطة للغاية لألحان قديمة . كان صوتها من نوع « الميتزو » ذى النبرات المشوبة ، الحزينة ، المرتعشة وكانت تخجل لدرجة لا تستطيع معها الغناء أمام أحد . حتى أوليفيه كانت تجد صعوبة فى الغناء أمامه ويكاد صوتها يختنق . وكان هناك لحن لبيتهوفن فى أغنية اسكتلندية تحبها كثيراً اسمها : « جونى الوفى » كان وديعاً ، وديعاً ... رقيقا للغاية ! . . يشبهها ولم يكن يستطيع أوليفيه أن يسمعها تغنى هذه الأغنية دون أن تترقرق عيناه بالدموع .

أما هى فكانت تفضل سماع أخيها ، كانت تسرع فى انجاز أعمالها المنزلية وتترك باب المطبخ مفتوحا ليتاح لها أن تسمع أوليفييه جيداً ،

وبالرغم من احتياطاتها أثناء العمل كان هو يشكو بعد أن ينفد صبره من الضجة التى تحدثها وهى تعيد الأوانى إلى مكانها . حينئذ كانت تغلق الباب ، وعندما تنتهى من عملها تعود لتجلس على كرسى منخفض — لا بالقرب من البيانو — (فأوليفييه لا يطيق رؤية أحد بجانبه عند العزف) ولكن قريبا من المدفأة وفى هذا المكان — كقطة صغيرة تكومت على نفسها — تدير انطوانيت ظهرها للبيانو ، وقد تعلقت عيناها بعيون الموقد الذهبية حيث تحترق قطعة من الفحم فى صمت وتستسلم لصور الماضى . وعندما تعلن الساعة التاسعة تكون فى حاجة إلى جهد لكى تذكر أوليفييه بأن الوقت قد حان للكف عن العزف . وكان من الصعب حمله على ترك موسيقاه كما كان من الصعب عليهما التخلص من أحلامهما . وكان لزاما على أوليفييه أن يستأنف عمله الدراسى فى المساء دون أن يمتد به السهر ولم يكن يطيع أخته على الفور لحاجته إلى بعض الوقت كى يستطيع ، بعد الانتهاء من موسيقاه أن يعود إلى العمل . ويسبح بعيداً بأفكاره وتدق الساعة معلنة النصف أحيانا قبل أن ينتشل نفسه من عالم الأحلام . وكانت انطوانيت ،وهى منكبة على أشغال التطريز فى الناحية الأخرى من المنضدة ، تعرف أنه لا يعمل شيئا ولكنها لا تجرؤ على أن تنظر كثيراً ناحيته خوفاً من أن يتضايق إذا شعر بمراقبتها له .

كان فى سن المراهقة — سن السعادة — حيث تمر الأيام الحائرة

كان ذا جبين نقى وعيون كعيون الفتيات ، ذات نظرات جريئة وساذجة وكثيراً ما تحيط به هالة من التعب . وكان ذا فم كبير وشفاه منتفخة كشفتى الطفل الرضيع ، ذات ابتسامة حائرة ، غامضة تائهة ، شاردة ، أما شعره فكان غزيراً ينزل حتى عينيه ويؤلف وفرة على قفاه مع خصلة عنيدة منتصبة ، وحول رقبته رباط مسترخ قليلا (مع أن أخته هى التى كانت تعقده له بعناية كل صباح) . وأما سترته فما كانت تثبت لها أزرار بالرغم من أن انطوانيت تضيع وقتاً طويلا فى تثبيتها ولم يكن يضع للأكمام أهدابا . وكان ذا يدين كبيرتين وقبضتين عظامهما بارزة .

وكان أوليفييه يبدو ساخراً ، ناعساً ، مستسلماً لحواسه وهو يحملق فى الفضاء ، أما عيناه اللتان تنتقلان بين الأشياء فكانتا تدوران حول غرفة انطوانيت (حيث المنضدة التى يعملان عليها) وتتسكعان على السرير الحديدى الصغير الذى علق فوقه صليب من العاج مع غصن من البقس وعلى صورتى أبيه وأمه ، وعلى منظر قديم يمثل بلدتهما الريفية الصغيرة ببرجها ومياهها اللامعة . وعندما تسقط عيناه على وجه أخته الشاحب وهى تعمل بصمت كان يحس بشفقة هائلة عليها وبثورة على نفسه ، فينتفض متضايقاً من تكاسله ثم يعمل بنشاط ليعوض الوقت الذى أضاعه .

كان يقرأ خلال العطلات ، كان كل منهما يقرأ وحده إذ أنهما على الرغم من حب أحدهما للآخر ، لم يكونا يستطيعان قراءة كتاب واحد

بصوت عال، لأن ذلك يجرح شعورهما كما لو كان فيه مايخدش الحياء. وكان يبدو لهما أن الكتاب النفيس سر لا تفوه به الشفاه ولكن تتحدث به القلوب. وعندما يستهوى أحدهما صفحة ما، كان - بدلا من أن يقرأها للآخر - يعطيه الكتاب مشيراً بأصبعه على الجزء المقصود وبينما كان أحدهما يقرأ كان الآخر يتابع بعينين لامعتين ما يطرأ على وجه أخيه من مشاعر ويشاركه إياها. كانا يجلسان متكئين أمام كتابيهما لا يقرآن وإنما يتسامران. وكلما تغلغل الليل كلما احتاجا إلى أن يبوحا بما فى نفسيهما وبدأ يتلاشى ما كانا يجدان من صعوبة فى الحديث. وكانت تتسلط على أوليفييه أفكار حزينة، وكان على هذا الإنسان الضعيف أن يتخلص دائماً من آلامه بأن يفرغها فى صدر إنسان آخر، وكانت الشكوك تعذبه دائماً، وكان على انطوانيت أن تعيد إليه شجاعته وأن تحميه مما يساوره: معركة لا تنتهى، وتتجدد كل يوم، ويبوح أوليفييه بأشياء مريرة ومحزنة، لا يكاد يبوح بها حتى يشعر بالارتياح ولا يهمه بعد ذلك أن يعرف ما إذا كان قد أثقل على أخته بما أباح إليها به. ولقد مضت مدة طويلة قبل أن يلاحظ كيف كان يضنيها ويسلبها قوتها وينقل إليها شكوكه شيئاً فشيئاً. ولم تظهر انطوانيت شيئا. كانت شجاعة بشوشة بطبيعتها، تضغط على نفسها لتحتفظ ببشاشتها فى الظاهر بينما هى قد فقدت مرحها من زمن. كانت تشعر فى بعض الأحيان بملل شديد، بثورة ضد حياة التضحية التى وهبتها نفسها ولكنها كانت تريد القضاء على تلك الأفكار وترفض أن

تتعمق فيها ، فهى تعانى منها دون أن ترضى بها . وكانت تستأنس بالصلاة إلا حينما لا يستطيع القلب أن يقوم بأدائها (وقد يحدث هذا) عندما يجف القلب تحت وطأة الآلام ، حينئذ لا يبقى أمامها إلا أن تنتظر صامتة محمومة ، خجولة ، أن تدركها رحمة الله . ولم يدر بخلد أوليفيه شىء من هذه الهواجس أبدا ، أما انطوانيت فعندما تمر بهذه الأزمات تبحث عن عذر ما لتخلو بنفسها وتنفرد فى غرفتها ولا تظهر إلا عندما تكون الأزمة قد مرت وحينئذ تبدو ابتسامتها وعليها آثار الألم أكثر رقة من ذى قبل كأنما تؤنب نفسها لاستسلامها للعذاب .

كانت غرفتاهما متجاورتين وسريراهما لا يفصلهما إلا حائط واحد . وكان فى استطاعتهما أن يتحادثا من خلاله بصوت خفيض ، وعندما يشعران بالأرق كانت بعض طرقات خفيفة على الحائط تقول :

— هل أنت نائم ؟ فأنا لم أنم .

وكان الجدار بينهما رقيقاً لدرجة جعلتهما كصديقين طاهرين يناما جنباً إلى جنب على سرير واحد . ولكن الباب الذى يفصل بين الغرفتين كان دائماً مغلقاً بالليل بدافع من الخجل الفطرى الخالص — وهو شعور مقدس لديهما — ولا يظل هذا الباب مفتوحا إلا فى حالة مرض أوليفيه ، وما أكثر ما يحدث ذلك .

فإن أوليفييه لم يكن يسترد ما يفقد من صحته ، بل يبدو أن صحته كانت فى تقهقر مستمر . كان يشكو دائماً من آلام فى حنجرته ، فى صدره ، فى رأسه ، فى قلبه . إن رشحاً بسيطاً كان كافياً لأن يعرضه للإصابة بالتهاب رئوى ، وقد أصيب بالحمى القرمزية وكادت أن تودى به . وكانت تبدو عليه أعراض غريبة لأمراض خطيرة ولكن دون أن يصاب بها فعلا وكثيراً ما شعر بآلام حادة فى الصدر أو فى القلب . ولقد قرر الطبيب الذى فحصه بأنه مصاب بالتهاب فى غشاء القلب أو الغشاء الرئوى . وأكد الطبيب الإخصائى الكبير الذى استشير بعد ذلك صحة التشخيص . ومع ذلك فلم يصب أوليفييه بشىء من هذا ، كان دائماً مصاباً باضطراب فى الأعصاب . وهذا النوع من الآلام يتخذ عادة أشكالا لا تخطر ببال أحد وإن كانت لا تكلف الإنسان سوى أيام من القلق ولكن كم هى قاسية بالنسبة لانطوانيت ! وكم مرت بها من ليال مسهرة !

كانت ترتعد خوفا عندما تقوم من سريرها لتنصت بجانب الباب إلى أنفاس أخيها ظانة أنه أوشك على الموت ، كانت على يقين من ذلك ، بل كانت متأكدة فيه ، وحينئذ كانت تنتفض وتضم يديها بشدة وتعقدها على فمها حتى تمنع نفسها من أن تصيح :

— يا إلهى . . . يا إلهى . . . لا تأخذه منى . . لا . . إن هذا . . هذا . . ليس لك الحق فيه . . . أتوسل إليك . . . إنى أتوسل إليك . . .

آه يا أمي العزيزة . . . تعالى لنجدتى . . يارب أنقـذ أخى . . . دعه يعيش .

وتنتصب إلى أعلى قائلة

ـــ آه كيف يموت فى منتصف الطريق ، بعد كل ما حققناه ، بعد أن أوشكنا أن نصـل إلى هدفنا ، وبعد أن أوشك أوليفييه أن يدرك السـعادة . لا ، لا يمكن أن يموت . . . إنها قسوة ، قسوة لا يمـكن احتمالها .

وبدأ أوليفييه يسبب لها هموماً أخرى ، كان شريفاً مثلها تماماً ، ولكنه ضعيف الإرادة. وكانت أفكاره الحرة إلى أقصى حد ، والمعقدة فى نفس الوقت ، تجعله مبلبلا بعض الشيء يشك فى كل شيء ، يتساهل فيما يجهله وتجذبه الملذات إليها . وكانت انطوانيت على درجة من الطهارة جعلتها لا تفهم ما يدور فى ذهن أخيها إلا بعد زمن طويل . وفى يوم من الأيام اكتشفت حقيقة الأمر فجأة :

ظن أوليفييه أن شقيقته قد غادرت المنزل . فقد تعودت أن تخرج فى تلك الساعة لإعطاء الدروس إلا أنه حدث فى ذلك اليوم أن تلقت فى اللحظة الأخيرة ، كلمة من تلميذتها تخطرها فيها بأنها ستستغنى عن الدرس فى ذلك اليوم ، وبالرغم من أن إلغاء هذا الدرس كان ينقص بضع فرنكات من ميزانيتها الضئيلة فقد سرت انطوانيت لذلك فى قرارة نفسها . كانت حينئذ تشعر بسأم شديد، فتمددت على سريرها وشعرت بسعادة لأنها تمكنت من أن تستريح يوماً دون أن يؤنبها ضميرها . وعاد أوليفييه من الليسيه بصحبة أحد زملائه ، وجلسا فى الغرفة المجاورة يتجاذبان أطراف الحديث . كان كل ما يقولان مسموعاً فقد كانا يتكلمان بحرية تامة ظناً منهما أنه ليس بالمنزل أحد . وظلت انطوانيت تنصت باسمة إلى صوت أخيها المرح ، ولكنها بعد قليل توقفت عن الابتسام وجمد الدم فى عروقها فقد أخذ الشابان يتحدثان فى مواضيع

غليظة معبرين عن ذلك بجرأة فاحشة وبدا عليهما التلذذ من الحديث وسمعت انطوانيت ضحكة اوليفييه،صغيرها اوليفييه ، والكلمات البذيئة تخرج من بين شفتيه . هاتان الشفتان اللتان كانت تعتقد حتى الآن أنهما بريئتان . وشعرت بألم حاد يحز فى قلبها ، وطال هذا الموقف ولم يكفا عن الكلام فى هذا الحديث الذى اجتذبهما والذى لم تستطع هى أن تمنع نفسها من أن تستمع إليـــه . وأخيراً خرج الصديقان وبقيت انطوانيت وحدها ، فبكت : إذ أن شيئاً ما من نفسها كان قد مات ، ألا وهو تلك الصورة المثالية التى كانت قد كونتها فيما سبق عن أخيها، — عن طفلها — لقد تلوثت تلك الصورة وكان ذلك بالنسبة إليها عذاباً مميتا . وعندما تقابلا فى المساء لم تقل له شيئا ولاحظ أوليفييه أنها قد بكت ولـكنه لم يعرف السبب ولم يفهم لماذا غيرت انطوانيت معاملتها إزاءه واحتاجت هى إلى بعض الوقت حتى تتمالك نفسها وتعود إلى طبيعتها.

ولـكن أشد ضربة سددها إليها اوليفييه كانت تلك التى جعلته لا يعود إلى المنزل ذات مساء ، وسهرت انطوانيت طول الليل فى انتظاره وكانت تتألم ألماً لا يقتصر على الجانب الخلق الطاهر منها ، بل كان ينفذ إلى الأعماق الغامضة من قلبها تلك الأعماق التى تضطرب فيها عواطف مهيبة كانت الفتاة تسدل عليها — لئلا تراها — حجابا لا يباح كشفه .

وأهم ما دفع اوليفييه إلى فعله هذا هو رغبته فى إثبات استقلاله ،

وقد عاد فى الصباح متخذاً مظهراً خاصاً وعلى استعداد لأن يجيب أخته بوقاحة إذا ما أبدت له ملحوظة ما . فدلف داخل الشقة على أطراف قدميه لئلا يوقظها ولكن عندما رآها واقفة تنتظره وقد بدا عليها الشحوب وظهرت آثار البكاء فى عينيها الحمراوين . عندما رآها تهتم بأمره وتعد له طعام الإفطار قبل ذهابه إلى المدرسة فى صمت ، دون أن توجه إليه لوماً ما أو تقول له أى شىء ، وقد بدت شديدة الإعياء ، وبدت كما لو إن كل ما فيها تأنيب حى لأوليفيه ، عندما رأى كل ذلك ، لم يتمالك نفسه فارتمى تحت أقدامها ، مخبئاً رأسه فى ردائها وبكى وأخذ الاثنان يبكيان معا . كان خجلا من نفسه مشمئزاً من تلك الليلة التى قضاها ، يشعر أنه أصبح دنيئاً . أراد أن يتكلم ولكن أخته منعته من ذلك ، بأن وضعت يدها على فمه فقبل تلك اليد . ولم يتلفظا بشىء . كانا متفاهمين تماما . وقد أقسم اوليفيه بينه وبين نفسه أن تكون أخلاقه عند حسن ظن أنطوانيت ، أما أنطوانيت فلم تستطع أن تنسى بسرعة ما ألم بها من جرح فكانت كالمتعافية من مرض وأصبح بين الشقيقين عائق ما. لم يتزعزع حبها لأوليفيه ولكنها أصبحت ترى فى نفس أخيها شيئاً غريبا عنها ، شيئا كانت تخشاه . .

وزاد من تأثرها إلى جانب ما اكتشفته فى نفس أوليفييه أنها فى تلك الفترة كانت تتألم من معاكسات بعض الرجال لها . فعند عودتها إلى المنزل فى المساء والليل يسدل أستاره ، خاصة عند ما كانت تضطر للخروج بعد العشاء لإحضار الأوراق التى تقوم بنسخها أو إعادتها ، كانت تشعر باضطراب شديد عنـــد ما يدنو منها بعض الرجال أو يتابعونها أو يلقون على مسامعها عروضاً فظة . كانت تصطحب أخاها كلما أمكنها ذلك بحجة حضه على النزهة ولـكنه لم يكن يوافقها بسهولة وكانت لا تجرؤ على الإلحاح لأنها لم تكن تريد إقلاقه فى عمله . ولم تستطع روحها الريفية الطاهرة أن تعتاد خصال العاصمة إذ أن باريس ليلا كانت — بالنسبة إليها — كغابة فيها الوحوش الدنسة التى تطاردها، فكانت ترتعد خوفا للخروج من مخبئها ولـكنها كانت مضطرة لذلك . وكانت تتردد كثيراً قبـل أن تعزم على الخروج وتتألم دائماً لذلك . وعند ما كانت تفـكر أن صغيرها أوليفييه سوف يصبح — أو ربما كان — مثل أحد هؤلاء الرجال الذين يطاردونها كان يصعب عليها عند عودتها فى المساء أن تمد إليه يدها لتصافحه . ولم يستطع أوليفييه أن يعرف سبب نفور أخته منه .

كانت أنطوانيت جذابة إلى درجة كبيرة دون أن تـكون رائعة الجمال ، تجذب الأنظار دون أن ترغب فى ذلك . كانت فى لبسها غاية

فى البساطة وترتدى ملابس الحداد فى أكثر الأوقات . لم تكن طويلة جداً وإنما كانت نحيفة ، رقيقة المظهر ، قليلة الكلام ، تمرق بين الناس دون أن يشعر بها أحد هاربة من الأنظار وإن كانت تجذب الأنظار بما فى عينيها المتعبتين وفمها الصغير الطاهر من عذوبة عميقة . فكانت تلاحظ أحياناً إعجاب الناس بها فتخجل لذلك مع شعورها بشىء من الاغتبـاط ، ومن ذا الذى يمكنه أن يعبّر عن الشعور بالدلال اللطيف العفيف الذى يتملك النفس خفية حينما تشعر هذه النفس بالألفة تأتيها من النفوس الأخرى . كان ذلك يظهر فى ارتباك بسيط فى حركاتها وفى نظرة خجولة ترسلها من طرف عينيها . وكان ذلك شيئاً ساراً ومؤثراً فى نفس الوقت . إن هـذا الاضطراب كان يزيد من جاذبيتها . وكانت تستثير الرغبات لدرجة تجعل البعض لا يخجل من مصارحتها بذلك نظراً لأنها فتاة فقـــيرة ولا معين لها فى الحياة .

كانت أحيـاناً تذهب لزيارة إحدى عائلات اليهود الأثرياء : « آل ناتان » الذين أظهروا لها اهتمامهم منذ قابلوها فى منزل أصدقاء لهم حيث كانت تعطى الدروس وبالرغم من حبها للوحـــدة لم تستطع أن تمتنع عن حضور سهرة أو اثنتين من سهراتهم . كان السيد الفريد ناتان أستاذاً معروفا فى باريس وعالماً جليـلا ورجلا من رجال المجتمع فى نفس الوقت مما جعل منه مزيجاً غريباً

من العلم واللهو وذلك شيء مألوف في المجتمع اليهودي . أما مدام ناتان فكانت تجمع — بنسب متساوية — بين عملها الخيري الصادق وإفراطها في الاندماج في المجتمع . وكان الاثنان سخيين نحو أنطوانيت فيما يظهران لها من مودة صادقة ولكن في غير استقرار فعند اليهود نوع من الفضول الدائم يجعلهم يبحثون عن النفوس والأفكار النفيسة ، ولا يعني ذلك أنهم يفعلون شيئاً لمساعدة الآخرين إذ أن مصالح كثيرة تشغلهم في وقت واحد ولأن حب التظاهر متسلط عليهم أكثر من غيرهم بالرغم من ادعائهم التحرر من حب التظاهر — وهم على الأقل يفعلون شيئاً ما وهذا الأمر لا بأس به بالنسبة لجمود المجتمع المعاصر . فهم عنصر هام في نطاق العمل . ولم يكترث أحد من الكاثوليك بأمر أنطوانيت فلم تجد عندهم إلا البرود الذي يشبه حائطاً ثلجيا من عدم الاكتراث . ولذا فقد شعرت بقيمة اهتمام أسرة آل ناتان بأمرها وإن كان اهتماما سطحياً . أدركت مدام ناتان حياة التضحية التي تعيشها أنطوانيت وشعرت بما لهذه الفتاة من جاذبية في مظهرها وطبيعتها ، ولذا حاولت أن تفرض عليها حمايتها . لم يكن عندها أولاد وكانت تحب الشباب وكثيراً ما كانت تجمع عندها شباناً وشابات ، وقد ألحت على أنطوانيت لتقوم بزيارتها هي أيضاً كي تخرج من عزلتها وتلهو قليلا ، ولما كان من السهل عليها إدراك سبب شعور أنطوانيت بالوحشة وأنه إنما يرجع

جزئياً إلى ضيقها المالى فقد أرادت أن تقدم إليها بعض الملابس الجميلة. إلا أن كبرياء أنطوانيت أبى عليها ذلك . فرفضت . ولكن هذه السيدة الفاضلة المحبة اتخذت مسلكا آخر أدى إلى إجبار أنطوانيت على قبول بعض تلك الهدايا الصغيرة التى كانت غالية الثمن بالنسبة للكبرياء النسائى البرىء . وأزاء ذلك كانت أنطوانيت تشعر فى آن واحـــد بعرفان الجميل والخجل ولذا كانت تحاول جاهدة أن تحضر سهرات مدام ناتان ولو من حين لحين وبحكم شبابها كانت تجـد فى ذلك بعض اللذة .

وفى هذا المجتمع الذى يخلط بين الناس ، وحيث يتقابل شبان كثيرون أصبحت الفتاة الصغيرة البائسة الجميلة ، التى ترعاها مدام ناتان هدفا لاثنين أو ثلاثة من الشبان الطائشين ، فحاولوا أن يوقعوها فى شباكهم وطمعوا فيها معتمدين على خجلها حتى وصل بهم الأمر إلى التراهن .

وفى ذات يوم بدأت ترد إلى أنطوانيت خطابات مجهولة — أو بالأحرى خطابات ممضاة باسم مستعـار رنان — تصارحها بالحب ، كانت فى بادىء الأمر خطابات غرامية فيها التملق والالحاح ، فيضرب فيها راسلها موعداً للقاء وسرعان ما أصبحت تلك الخطابات أكثر جرأة عن ذى قبل ، أخذت تستخدم التهديد ثم السب ثم النميمة الحقيرة خطابات تجردها من ثيابها وتسرد أسرار جسدها بالتفصيل وتلوث

هذا الجسد بشهواتها الدنيئة تسعى إلى استغلال سذاجة أنطوانيت مهددة إياها بفضيحة علنية إن لم تحضر فى الميعاد المحـــدد . وكانت أنطوانيت تبكى ألماً كلما شعرت أنهـا جلبت لنفسها عروضاً حقيرة كهذه . كانت تلك الإهانات تحرق كبرياءها جسداً وروحا ولـكنها لا تدرى كيف تخرج من هـذا المأزق . لم تشأ أن تفاتح أخاها فى هذا الموضوع ، كانت تعلم أنه سيتألم كثيراً وأنه سيجعل المسألة تتخذ شكلا أكثر خطورة . ولم يكن لها أصدقاء . فهل تلجأ إلى البوليس ؟ كانت ترفض ذلك خوفا من الفضيحة . ومع ذلك فقد كان لا بد من إيجاد حل لهذا الموقف وقد شعرت أن سكوتها لا يكفى لحمايتها وأن الشقى الذى يطاردها سوف يكون عنيداً فى موقفه وأنه سوف يصل إلى أقصى حد من الاستهتار ولن يتراجع إلا إذا وجـد أنه سيقع فى خطر . فقد بعث إليها برسالة كإنذار نهـائى يأمرها بالذهاب إلى متحف اللوكسانبرج فى الغد . فذهبت . وكانت قد اقتنعت بعد أن أرهقت ذهنها فى التفـكير أن هذا الشخص الذى يضطهدها لا بد أن يكون قد قابلها عند مدام ناتان إذ أنه أشار فى إحدى رسائله إلى أمر من المرجح أن يكون قد حدث هناك .

وتوسلت إلى مدام ناتان طالبـة منها أن تؤدى لها خدمة كبيرة وهى أن ترافقها بعربة حتى باب المتحف وتنتظرها لحظة هناك . فذهبتا ودخلت أنطوانيت المتحف ، وعنـد ما وصلت أمام اللوحة المتفق

عليها اقترب منها الفتى الذى كان يهددها برسائله تعلوه علامات الانتصار وبدأ يحدثها فى ذوق مصطنع فحدقت فيه النظر دون أن تنطق بكلمة وعند ما انتهى من حديثه سألها مازحاً لماذا تفحصه هكذا فأجابت :

— إنى أنظر إلى جبان .

ولم يضطرب لمجرد هذا التوبيخ وبدأ يكلمها بدون كلفة فقالت له

— أردت أن تهددنى بفضيحة فجئت لأقدمها إليك ، أترغب فى ذلك؟

كانت ترتعد وهى تتكلم بصوت مرتفع وكان ممكناً أن يلفت إليها الأنظار وكان الناس ينظرون إليهما فعلا . وشعر الشاب أنها لن تتراجع أمام أى شىء فخفض من صوته ، فرمته مرة أخيرة بقولها :

— إنك الجبان .

وأدارت له ظهرها فتبعها كى لا يظهر فى صورة المنهزم . خرجت أنطوانيت من المتحف والرجل يسير على أعقابها واتجهت نحو العربة التى كانت تنتظرها وفتحت الباب على حين غرة فوجد الشخص نفسه وجهاً لوجه أمام مدام ناتان التى عرفته وحيته باسمة . فاضطرب واختفى عن الأنظار .

واضطرت أنطوانيت أن تروى لرفيقتها قصة هذا الشخص رغم أنها لم تفعل ذلك بدون أسف وبتحفظ شديد إذ أنه كان من الصعب

عليها أن تطلع سيدة غريبة على سر آلامها الناتجة عن حياتها المجروح.
فآخذتها مدام ناتان لأنها لم تنبهها فى بادىء الأمر وتوسلت إليها
انطوانيت أن لا تروى هذه القصة لأحد ، وانتهى الحادث عند هذا
الحد ولم تكن صديقة انطوانيت بحاجة إلى غلق باب منزلها فى وجه
هذا الشخص إذ أنه لم يعد بعد ذلك أبدا .

وفى نفس الآونة تقريباً تألمت انطوانيت بألم من نوع آخر . فإن رجلا نزيهاً للغاية يناهز الأربعين من عمره ويشغل وظيفة قنصلية فى الشرق الأقصى كان قد عاد إلى فرنسا فى أجازته لتمضية بضعة أشهر وقد قابل انطوانيت عند أسرة الناتان وأغرم بها ، وقد أعدت مدام ناتان هذه المقابلة دون علم انطوانيت إذ قررت فى نفسها أن تتوسط فى زواج صديقتها الصغيرة . كان يهودياً ولم يكن جميلا بل كان أصلع قليلا ومنحنى الظهر ولكن كانت له نظرة طيبة ، مخلصاً فى معاملاته مع الناس وله قلب يرثى لآلام الغير إذ كان هو نفسه قد قاسى الكثير . ولم تعد انطوانيت هذه الفتاة الصغيرة الخيالية ، هذه الطفلة المدللة التى تتخيل الحياة كأنها نزهة مع الشخص الحبيب فى ذات يوم جميل ولكنها كانت تنظر إلى الحياة الآن وكأنها معــــركة عنيفة يجب على المرء أن يستأنفها كل يوم دون كلل ، وإلا فقد فى لحظة واحدة كل الأرض التى اكتسبها شبراً شبراً بعد سنوات كلها تعب . وأخذت انطوانيت تصور لنفسها كم يكون عذباً أن تتكىء على ذراع صديق يشاركها متاعبها وتستطيع أن تغمض عينيها قليلا بينما هو ساهر عليها . كانت على يقين من أن هذا كان حلماً ولكنها لم تجد بعد الشجاعة الكافية لتودع ذلك الحلم نهائيا ، والحقيقة أن انطوانيت لم تكن تجهل أن الفتاة التى لا تملك مهراً ليس من حقها أن تأمل شيئاً فى المحيط الذى تعيش فيه .

فالطبقة البرجوازية الفرنسية العتيقة معروفة فى العالم كله بالعقلية المادية الدنيئة التى تواجه بها مسائل الزواج . إن هؤلاء البرجوازيين يفوقون اليهود أنفسهم فى شغفهم الدنىء بالمال . فكثيراً ما يختار شاب يهودى ثرى فتاة فقيرة شريكة لحياته ، أو أن فتاة غنية تبحث بلهفة عن رجل مفرط فى ذكائه ، أما عند البرجوازى الكاثوليكى الريفى فإن كيس النقود يبحث عن كيس النقود . ولماذا يفعل هؤلاء البؤساء ذلك ، إن حاجياتهم تافهة فهم لا يعرفون سوى الأكل والتثاؤب والنوم والإدخار . كانت انطوانيت تعرفهم جيداً فقد رأتهم منذ طفولتها بمنظار الثراء كما رأتهم بمنظار الفقر ولم تعد تتوهم أن فى استطاعتها الاعتماد عليهم . لذلك شعرت بسرور عميق غير منتظر عندما تقدم لها هذا الرجل طالباً يدها ، ومع أنها لم تشعر نحوه بالحب فى بادىء الأمر إلا أنها أخذت تشعر إزاءه بحنان عميق وبعرفان للجميل . ومع ذلك رفضت طلبه ، وما كان لها أن ترفض لولا أنه كان لزاما عليها أن تتبعه إلى المستعمرات وأن تترك أخاها . وأدرك هذا الصديق سمو الأسباب التى دفعتها إلى الرفض ، إلا أنه لم يغفر لها ، فالحب أنانى يطلب من الحبيب أن يضحى من أجله بكل شىء حتى أجمل الصفات التى يتحلى بها ولا يقبل منه دون ذلك . وامتنع الرجل عن رؤيتها ولم يراسلها بعد سفره وانقطعت أخباره عنها حتى أرسل إليها يوماً — بعد خمسة أو ستة شهور — دعوة مكتوبة بخط يده تنبئها بزواجه من امرأة أخرى .

واكتأبت انطوانيت كثيرا لهذا النبأ . وامتلأ قلبها بالحسرة مرة أخرى ونذرت آلامها لله ، أرادت أن تقنع نفسها بأنها تستحق العقاب الذى نزل بهالانها نسيت — ولو للحظة — مهمتها الوحيدة : التضحية من أجل أخيها . وحينئذ لم تعد تفكر فى غير تلك المهمة .

واعتزلت انطوانيت العالم وانقطعت عن زيارة آل ناتان الذين أظهروا نحوها فتورا منذ رفضت العريس الذى قدموه لها ، هم أيضاً لم يقتنعوا بأسباب رفضها . ولقد جرح كبرياء مدام ناتان ألا يتم هذا الزواج بسبب انطوانيت . وكانت قدقررت بادىء الامر أنه سيتم وأنه سيكون موفقاً للغاية . لم تكن تشك فى أن لدى انطوانيت أسباباً وجيهة للرفض وإن كانت أسباباً عاطفية مبالغاً فيها ، وبين عشية وضحاها تخلت عن هذه الفتاة المليئة بالكبرياء — فى نظرها وانشغلت عنها ، إذ أن رغبتها الملحة فى تقديم المساعدة للناس — سواء أرادوا ذلك أم لا — وفقها لاختيار فتاة أخرى بسطت عليها حمايتها ، فاستنفدت كل ما كان فى استطاعة مدام ناتان حينئذ أن تقدم من إخلاص واهتمام لإنسان ما .

كان أوليفييه على جهل تام بالأحداث المؤلمة التى اتخذت قلب انطوانيت مسرحاً لها . فقد كان صبيا طائشا يعيش فى الاحلام ، ومن العبث الاعتماد عليه فى شىء رغم تفكيره الجذاب وعقله الملىء بالحيوية وقلبه الذى يتدفق منه الحنان مثلما يتدفق من قلب انطوانيت .

أما مجهوداته التى تستمر شهوراً متتالية فقد كانت معرضة للضياع نتيجة لأعمال تافهة أو نتيجة لتكاسل أو يأس أو حب خيالى يستنفد كل وقته وقواه . كان يعشق من يصادف من فتيات جميلات أو يغرم بفتيات صغيرات مدللات لم يتحدث معهن أكثر من مرة فى مجتمع ما رغم أنهن لا يعرنه أى اهتمام وكثيراً ما عشق كتاباً أو قصيدة أو لحناً فأغرق نفسه فيــه شهوراً طويلة على حساب دراسته . وكان على انطوانيت أن تراقبه دون ملل وفى حذر شديد حتى لا ينتبه إلى ذلك وحتى لا تجرح شعوره ، وكانت تخشى دائماً أن يتهور فى تصرفاته فقد كان محموماً دائماً متلهفاً لكل شىء ، غير متزن ، يسارع إلى الأمور بقلق بالغ كما يفعل الذين يترقبهم مرض السل . ولم يخف الطبيب عن انطوانيت مدى مافى ذلك من خطورة ، فأوليفييه كان بطبيعته كالنبات الهزيل الذى نقل من موطنه الأصلى إلى باريس ، بينما هو فى حاجة إلى الضوء والهواء النقى . ولكن انطوانيت لم تستطع أن توفر له ذلك فلم يكن لديها من المال ما يسمح لها بالابتعاد عن باريس أثناء العطلة الصيفية . وفى باقى أيام السنه كانا ينهمكان فى أعمالها طوال الأسبوع ويبلغ منهما التعب أشده أيام الآحاد فلا يجدان ميلا إلى الخروج من المنزل إلا إذا كانت هناك حفلات موسيقية .

ومع ذلك فنى بعض آحاد الصيف كانت انطوانيت تغالب نفسها وتصطحب أخاها إلى الغابات المجاورة لباريس من ناحية « شافيل » أو « سان كلو » ، ولكن تلك الغابات تكون عادة مليئة برجال يصطحبون

النساء وسط الضجيج والغناء الشعبي والأوراق الملوثة الملقاة على الأرض . . فلا يجدان وسط كل هذا ما ينشدان من قدسية الوحدة التي تريح النفس وتنقيها ، ويعودان فى المساء فى فوضى القطارات المزدحمة حيث تتكدس الناس فى جو خانق داخل عربات الضواحى المتجلة الواطئة . كانت هناك ضوضاء وضحك وغناء وإباحية ورائحة كريهة تمتزج بدخان التبغ . . ويعود أوليفييه وانطوانيت من هذه الرحلة متأنفين وقد فقدا روحهما المعنوية التى كانت تنفر من تلك المظاهر الشعبية . ويتوسل أوليفييه إلى أخته ألا تعود إلى تلك النزهات ، ولا تجد انطوانيت فى نفسها الرغبة فى تكرارها قبل أن يمضى وقت طويل . ومع ذلك ورغم كراهيتها لهذه النزهات التى تفوق كراهية أوليفييه لها كانت تعتقد أنها ضرورية لصحة أخيها فترغمه على أن يعود إليها ولكن التجارب الجديدة لم تكن أسعد من الأولى ويؤنبها أوليفييه على ذلك فى شدة وحينئذ يظلان محبوسين فى المدينة الخانقة ومن ساحة سجنهما كانا يتوقان إلى الحقول .

وصل أوليفييه فى دراسته إلى المرحلة النهائية ، وكان عليه أن يؤدى فى نهاية ذلك العام امتحان مدرسة المعلمين العليا ، حان الوقت فعلا للانتهاء من هذه الدراسة . وشعرت انطوانيت بوطأة التعب . كانت تعتقد أن شقيقها سينجح إذ أن الظروف جميعا كانت تهيؤه للنجاح ، فقد كان من الطلبة الممتازين فى « الليسيه » وأجمع مدرسوه على تقدير أعماله وذكائه لولا أن التفكير المنظم كان ينقصه ، مما جعل من الصعب عليه إخضاع فكره لأية خطة ثابتة ، ولكن شعور أوليفييه بالمسئولية الملقاة على عاتقه كان يرهقه إلى درجة أخذت تفقده القدرة على العمل كلما اقترب موعد الامتحان ، بل أن التعب المضنى والخوف من الرسوب وخجله الذى أصبح كالمرض بالنسبة إليه ، كل هاتيك كانت تشل تفكيره قبل الامتحان بمدة . كان يرتعد لمجرد التفكير فى أنه سيقف بين يدى ممتحنيه ولكم سبب له خجله من عذاب ! كان وجهه يحمر خجلا ويكاد يختنق عندما يأتى دوره ليتكلم ، وكان لا يجيب إلا بصعوبة — فى بادىء الأمر — إذا نودى اسمه ، ثم أنه كان من السهل عليه أن يجيب على سؤال فجائى أكثر مما لو كان يعرف أن ثمة سؤالا سيلقى عليه ، وحينئذ يصبح كالمريض ولا ينقطع ذهنه عن التفكير مهيئاً له كل ما سيحدث بالتفصيل ، وكلما طال انتظاره ازداد به التفكير . وليس هناك امتحان إلا وأداه مرتين على الأقل :

يؤديه مرة فى الأحلام فى الليالى السابقة للامتحان حيث يستنفد كل نشاطه وهكذا لا يتبقى من نشاطه شىء للامتحان الفعلى .

على أنه لم يستطع بمجرد الوصول إلى تأدية الامتحان الشفهى المخيف الذى كان يجعل العرق يتصبب منه أثناء الليل لمجرد التفكير فيه ، ففى امتحان الفلسفة التحريرى عجز أوليفييه عن أن يكتب ولو صفحتين فى ست ساعات بينما كانت المادة جديرة باستهوائه فى ظروف عادية أخرى . كان ذهنه خاوياً خلال الساعات الأولى من الامتحان ، لم يفكر فى شىء ، فى أى شىء على الإطلاق وخيل إليه أن أمامه حائطاً أسود يصطدم به كلما حاول التفكير . وتشقق هذا الحائط قبل انتهاء الوقت المحدد للامتحان بساعة واحدة وتدفقت من هذا الحائط إشعاعات من النور . وتمكن أوليفييه عندئذ من كتابة بعض السطور الممتازة ولكنها لا تكفى لنجاحه . ورأت انطوانيت علامات الانهيار على وجه أخيها فأدركت أنه راسب لا محالة ، وشعرت باليأس مثله تماماً . ولكنها لم تظهر له شيئا وعلى كل فقد كان لديها قدره دائمة على الاحتفاظ بالأمل فى أشد الظروف يأسا .

ورسب أوليفييه فى المسابقة .

وذهل لذلك . أما انطوانيت فكانت تتظاهر بالابتسام كما لو كان الأمر غير ذى أهمية ولكن شفتيها كانتا ترتعدان ، وأخذت تواسى

شقيقها قائلة له أنه من السهل عليه تعويض ما نتج عن سوء الحظ ، وأنه سينجح دون شك فى العام التالى وبترتيب أفضل . ولم تقل له كم كان يهمها أن ينجح فى ذلك العام ، ولا كيف تشعر بجسدها وروحها يضمحلان لخشيتها ألا تتمكن من احتمال عام آخر كالذى انقضى ، ولكن الضرورة كانت تحتم عليها أن تحتمل ، فلو أنها اختفت قبل أن ينجح أوليفييه لما وجد الشجاعة الكافية للاستمرار فى كفاحه وحده: سوف تفترسه الحياة .

لذلك أخفت انطوانيت عن أخيها أعباءها ، وضاعفت جهودها ، وتفانت لتوفر له بعض التسليات أثناء العطلة الصيفية ، حتى يعاود العمل بقوة جديدة فى بدء العام الدراسى . ولما حان الوقت وجدت انطوانيت أن القليل من المال الذى أدخرته قد نفد علاوة على أنها فقدت أكثر الدروس التى كانت تعود عليها بفائدة كبيرة .

ومضى عام آخر . وتوترت أعصاب انطوانيت وشقيقها أمام الامتحان النهائى وكادت أن تتحطم . كان عليهما قبل كل شىء أن يعيشا وأن يبحثا عن سبل أخرى للعيش . فقبلت انطوانيت وظيفة مدرسة لأسرة فى ألمانيا حصلت عليها بفضل أصدقائها من آل ناتان . كان ذلك آخر حل تود انطوانيت أن تلجأ إليـــه . إذ لم يكن ثمة حل آخر فى ذلك الحين ولم تعد تستطيع الانتظار ، فمنذ ست سنوات وهى لم تفارق شقيقها يوماً واحداً . وأصبحت لا تتصور كيف تعيش الآن دون

أن تراه أو تستمع إليه . وكلما فكر أوليفييه فى ذلك الأمر شعر بالفزع ولكنه لم يجرؤ على الكلام : ألم يكن هو السبب فى هذا الشقاء، لو أنه نجح لما اضطرت انطوانيت أن تلجأ إلى مثل تلك الحلول . ولم يعد من حقه أن يعترض على هذا الحل الذى ارتأته أخته . كان على انطوانيت أن تقرر الأمور وحدها .

وقضى الشقيقان الأيام التى تسبق سفر انطوانيت فى ألم صامت كما لو كان أحدهما على وشك الموت . وكلما اشتدت وطأة الألم على واحد منهما كان ينعزل عن الآخر ويختبىء . إن انطوانيت تنظر إلى شقيقها تستقى النصيحة من نظراته . لو أنه قال لها :

— لا ترحلى !.

لعدلت عن سفرها رغم شدة ضرورته . وحتى اللحظات الأخيرة وهما فى العربة التى أقلتهما إلى محطة الشرق كانت انطوانيت على استعداد لأن تعدل عن قرارها إلا أنها لم تجد فى نفسها القوة الكافية للتنفيذ ، انتظرت كلمة من شقيقها ، كلمة واحدة ولكنه لم يتفوه بها . . كان هو الآخر يتجلد مثلها .

وطلبت منه أن يعدها بالكتابة إليها يومياً وألا يخفى عنها شيئاً ، وأن يدعوها إليه فوراً إذا ما طرأ أدنى شىء .

ورحلت انطوانيت . وعاد أوليفييه حزيناً إلى عنبر النوم فى الليسيه ، حيث قبل الالتحاق بالقسم الداخلى ، بينما كان القطار يحمل انطوانيت التى بدا عليها الألم وأخذت ترتعش من البرد . لم يغمض لكليهما جفن طوال الليل ، إذ كان كل منهما يشعر بأن كل دقيقة تمر به تبعده عن الآخر ، وأخذا يتناجيان بصوت خافت .

كانت انطوانيت تشعر بخوف من الحياة الجديدة التى تقبل عليها . لقد تغيرت كثيراً فى السنوات الست الماضية . لقد كانت فيما مضى من الشجاعة بحيث لا يرهبها شىء ، ثم تعودت السكون والوحدة لدرجة جعلتها تتألم كلما اضطرت إلى أن تحيد عن ذلك . انطوانيت الضاحكة ، الثرثارة ، المرحة أثناء الأيام السعيدة التى انقضت وانقضت معها حياتها ، لقد جعل منها البؤس فتاة برية ، ولا شك أن عدوى الخجل قد انتقلت إليها آخر الأمر من أوليفييه . كان من الصعب عليها التحدث مع أى شخص خلاف أخيها . أصبحت تهاب كل شىء وتخاف حتى من الزيارات العادية . ولذا كانت تشعر بغم شديد لمجرد التفكير فى أنها ستعيش مع أناس غرباء وتتحدث إليهم ، وتكون موضع نظراتهم على الدوام . هــــذه الفتاة المسكينة لم يكن لديها — كما لم يكن لدى أخيها — أى استعداد للتدريس . فكانت تؤدى واجبها بأمانة رغم

أنها لم تكن تؤمن به . ثم أن شعورها بما لعملها من عدم الفائدة لم يساعدها على أداء ذلك العمل . لقد خلقت لتهب الحب للناس ، ولم تخلق للتدريس ، ولكن أحداً لم يكترث لعاطفتها .

وكان منزل الأسرة التى عملت لديها فى ألمانيا آخر مكان يصلح لإظهار تلك العاطفة ، إذ أن أسرة جرونبوم التى كلفتها بتدريس اللغة الفرنسية للأطفال لم تعرها أى اهتمام . فأفراد تلك الأسرة كانوا مزيجاً من الكبرياء والألفة ، لا يبالون بشىء ، وإن كانوا فضوليين . كانوا يدفعون أجورا لا بأس بها ، إلا أنهم كانوا ينظرون إلى من يقبض مالهم كأنه مدين لهم بالجميل ، ويعتقدون بعد ذلك أن من حقهم أن يتصرفوا معه كما يشاءون . لذلك عاملوا انطوانيت كما لو كانت خادمة ذات مستوى يعلو قليلا عن باقى الخدم . ولم يتركوا لها أى حرية تقريباً ، حتى أنها لم يكن لها غرفة خاصة بها . كانت تنام فى غرفة صغيرة ملاصقة لغرفة الاطفال ، يظل بابها مفتوحاً أثناء الليل . وهكذا لم تستطع أن تنفرد بنفسها لحظة ، ولم تبال الأسرة لحاجة انطوانيت فى أن تنطوى على نفسها من وقت لآخر ، هذا الحق المقدس فى أن ينفرد كل إنسان بمشاعره الداخلية . كانت كل سعادتها أن تلتقى بأفكارها مع شقيقها ، وتتحدث إليه مستغلة اللحظات التى تتمتع فيها بالحرية ، ولكن حتى تلك اللحظات كانوا ينازعونها إياها وما تكاد تكتب كلمة واحدة حتى تجد فى الغرفه من يحوم حولها ويسألها عما

تكتب ، وإذا ما قرأت خطاباً سألوها عما فيه . وكانو يستخبرون عن: « الشقيق الصغير » بطريقة ودية وإن لم تخل من سوء الظن والسخرية . وكان على انطوانيت أن تختبىء . وقد يخجل الإنسان عندما يعلم الوسائل التى كانت الفتاة تلجأ إليها أحياناً ، وكيف كانت تحبس نفسها فى أماكن منعزلة لتقرأ — دون أن يراها أحد — خطابات أوليفييه . ولو حدث مرة ونسيت خطابا فى مكان ما بغرفتها فما لا شك فيه أن ذلك الخطاب سيقرأ حتما . ولما لم يكن لديها من الأثاث المحكم ، الذى يمكن أن تحتفظ فيه بحاجياتها ، سوى حقيبتها الكبيرة ، فقد كانت مضطرة لأن تحمل معها كل ما تملك من أوراق لا ترغب فى أن يطلع عليها أحد . كانوا يفتشون دائماً فى حاجياتها كما كانوا دائمى البحث عما يدور فى نفسها وكانوا يبذلون جهدهم لكى يصلوا إلى ما فى أعماقها من أسرار ، ولم يكن ذلك اهتماماً من آل جرونبوم بأمر انطوانيت ، ولكن اعتقادا منهم أنها ملك لهم ما داموا يدفعون لها أجراً ، وعلى كل حال فهم لا يفعلون ذلك عن سوء قصد ، وإنما لأن الفضول كان عادة أصيلة لديهم حتى أنهم لا يشعرون لذلك بأى حرج فيما بينهم .

ولم يكن هناك شيء أصعب احتمالا على نفس انطوانيت من هذا التجسس المستمر ، وهذا التجرد من الحياء الذى لم يكن يسمح لها بأن تهرب — ولو ساعة كل يوم — من أنظار الفضوليين ، ولم يلبث التحفظ والكبرياء الذى تواجه به انطوانيت آل جرونبوم إن آلمهم .

وكانوا طبعاً يجدون فى المثل الأخلاقية العالية أسباباً يبررون بها فضولهم الفظ ، ويستنكرون بها رغبة انطوانيت فى أن تتحاشى ذلك . كانوا يؤمنون أن من حقهم معرفة كل شىء عن الحياة الخاصة لتلك الفتاة التى تعيش عندهم كواحدة من أفراد الأسرة والتى وكلوا إليها أمر تربية أطفالهم ، من أجل ذلك كله فهم مسئولون عنها . (وكثيرات من ربات البيوت يدعين هذه المسئولية بالنسبة لخدمهن ، وإن كانت هذه المسئولية تقتصر على حرمان هؤلاء المساكين من أى بهجة فى الحياة ، إلا أنها لا تجنبهن الأعمال الشاقة أو الكريهة) واستنتج آل جرونبوم أن انطوانيت لا بد وأن تكون مذنبة لرفضها الاعتراف بواجبهم الأدبى نحوها فالفتاة الشريفة ليس لديها ما تخفيه من أسرار .

وهكذا أحيطت انطوانيت بجو من الاضطهاد ، اضطرها أن تكون دائماً على أهبة الاستعداد للدفاع عن نفسها . وزادها ذلك جموداً فى مظهرها وانطواء على نفسها يتجاوز المألوف .

كان يصلها يومياً من أخيها خطابات لا تقل صفحاتها عن اثنتى عشر . وتمكنت من الرد على كل خطاب ولو ببضعة سطور . ولقد حاول أوليفيه أن يبدو شجاعا وأن يخفى ما استطاع من ألمه ، ولكن الملل كاد يقتله ، إذ أن حياته كانت أبداً مرتبطة بحياة شقيقته لدرجة جعلته يشعر بأنه فقد نصف كيانه بعد أن افترق عنها . فلم يعد يعرف كيف يستعمل فكره أو حتى ذراعيه وساقيه ، لم يعد يعرف كيف يتنزه

أو كيف يعزف على البيانو ، لم يعد يعرف كيف يعمل أو كيف لا يعمل ولم يعد يرى فى أحلامه شيئا سوى أخته . وأخذ ينكب على كتبه من الصباح حتى المساء ولكن دون أية فائدة ، إذ أن فكره كان بعيداً . كان يتعذب فى نفسه عندما يفكر فى أخته وفى رسالة الأمس ويظل يحدق فى ساعة الحائط منتظراً الرسالة التالية التى ما يكاد يتسلمها حتى ترتعد أصابعه فرحاً — وخوفاً أيضاً — وهى تمزق الغلاف. لم يحدث قط لحبيب تسلم من حبيب له رسالة فاضطرب حناناً وقلقاً مثلما حدث لأوليفييه . لقد كان يتوارى كما كانت تفعل أخته ليقرأ رسائلها التى يحتفظ بها دائما معه . وكان إذا جاء الليل يضع آخر رسالة تصله منها تحت وسادته ، ويظل يتفقدها من وقت لآخر ليطمئن عليها فى ساعات الأرق الطويلة التى يداعب خياله فيها ظل أخته العزيزة . كم كان يشعر بوطأة البعد عنها ، وكانت نفسه تنقبض بوجه خاص إذا ما تأخر البريد فى حمل رسالة انطوانيت إليه فلا تصله إلا بعد مضى يومين من إرسالها . ما أطول اليومين والليلتين بينهما ! كان يبالغ فى طول الوقت والمسافة التى تفصل أحدهما عن الآخر ، لا سيما وهو لم يسافر من قبل . كان خياله دائب العمل فهو يقول لنفسه : «يا إلهى ! ما العمل إذا مرضت ؟ إنه لمن المحتمل أن تموت قبل أن يمكنه رؤيتها . لماذا لم تكتب إليه إلا بضعة أسطر فى اليوم السابق ؟ هل كانت مريضة ؟ نعم لقد كانت مريضة — وعندئذ يكاد يختنق أوليفييه . وكان التفكير يذهب به — أكثر من ذلك — إلى الفزع خوماً من أن يموت بعيداً عن شقيقته وهو وحيد وسط زملائه الذين لا يكترثون بأمره، وفى هذه

الليسيه التي تشمئز منها النفس وفى باريس الكئيبة . كان يفكر كثيراً فى هذا الاحتمال حتى يمرض فعلا فيتساءل : هل يكتب إليها لكى تعود ؟ ولكن سرعان ما كان يخجله هذا الجبن . وعلى كل حال ، فما أن يشرع فى الكتابة حتى يشعر بسعادة فى التحدث إليها تجعله ينسى لمدة قصيرة آلامه . وكان يخيل إليه أنه يراها ويستمع إليها فيروى لها كل شىء فى خطاباته . لم يحدث أبداً عندما كانا معاً أن حدثها بمثل هذه المودة الصادقة وبمثل هـــذه العاطفة التى تجعله يناديها : « شقيقتى المخلصة الشجاعة ، شقيقتى الصغيرة الحبيبة الطيبة التى أحبها حبا جما » . إنها كانت رسائل غرامية حقا .

وكانت خطابات أوليفييه هذه تغمر انطوانيت بحنانها المتدفق ، فكانت النسيم الذى تستنشقه الفتاة طوال يومها ، وإذا ما تأخرت فى الصباح عن الميعاد المنتظر ظهر عليها البؤس . وحدث إن آل جرنبوم تأخروا مرتين أو ثلاثة حتى المساء فى تسليمها خطابات أخيها ، وكان ذلك عن عدم اكتراث أو ربما عن سوء قصد وفى مرة أخرى أهملوا أمر الخطاب حتى اليوم التالى فانتابت انطوانيت الحمى . وفى يوم رأس السنة خطرت لهما ، هما الإثنان ، فكرة واحدة دون أن يتفقا عليها ، ففاجأ كل منهما الآخر ببرقيــة مطولة (كلفتهما الكثير) ووصلت إليهما فى ساعة واحدة . وكان أوليفييه مستمراً فى إستشارته لانطوانيت فيما يختص بأشغاله ، وما يعتريه من قلق فتسدى إليه انطوانيت النصح وتسانده ، وتبث فيه قوتها .

ولكن انطوانيت كانت هى نفسها فى حاجة إلى القوة ، إذ كادت تختنق فى هذا البلد الغريب حيث لا تعرف أحدا ولا يهتم بأمرها أحد ، اللهم إلا زوجة لأحد المدرسين ، جاءت أخيرا للإقامة فى تلك المدينة ، وكانت هى أيضا تشعر بالغربة وأحست هذه السيدة الكريمة بشىء من حنان الأم ، وتأثرت لألم هذين الشقيقين الصغيرين اللذين افترقا رغم حبهما الشديد . (وقد نجحت فى أن تنتزع من انطوانيت جزءا من قصتها) ، ولكن هذه السيدة كانت تحب الضجيج وتتصرف بطريقة عامية ، تنقصها اللباقة والرزانة ، إلى حد جعل انطوانيت ذات الإحساس المرهف تنطوى على نفسها . لذلك لم تتمكن الفتاة من أن تبوح بما فى قلبها لأحد ، وأخذت تكتم همومها فتشعر بين الحين والحين بأنها قد أوشكت على السقوط تحت هذا العبء الثقيل ، ولكنها كانت تعض على شفتيها وتستأنف السير . وساءت صحتها فانتابها هزال شديد . لقد كانت خطابات أوليفييه تزداد يأسا . وفى أزمة من الضيق كتب إليها قائلا :

— عودى ، عودى ، عودى ! . . . .

وما كاد يرسل هذا الخطاب حتى شعر بالخجل من نفسه فكتب خطابا آخر يرجو فيه من أخته أن تمزق الخطاب الأول ولا تفكر فيه ، وادعى المرح ، وأنه لم يعد فى حاجة إلى شقيقته . فقد كان يجرح كبرياءه أن يعتقد أحد أنه لا يستطيع الاستغناء عن أخته .

ولكن انطوانيت كانت تدرك أمر أوليفييه تماماً فكانت تقرأ ما يدور فى ذهنه دون أن تدرى ما تفعل . وفى أحد الأيام أوشكت على العودة ، فذهبت إلى المحطة لتستفسر عن موعد قيام قطار باريس بالضبط ، ولكن سرعان ما قالت لنفسها أن هذا ضرب من الجنون ، فإن النقود التى تحصل عليها هنا تسمح لها بدفع مصاريف أوليفييه المدرسية وأنه طالما استطاعا الاحتمال وجب عليها الثبات ، ولم يعد لانطوانيت ما يلزمها من حزم لاتخاذ أى قرار . فكانت تعود إليها فى الصباح شجاعتها الفائقة ولكن حين يقترب منها ظل المساء كانت تخور قواها فتفكر فى الهرب . كانت تشعر بالحنين إلى وطنها ، هذا الوطن الذى طالما كان قاسياً ، ولكن مع ذلك ينطوى على كل ما كانت تقدسه فى ماضيها ، أنها كانت تتوق إلى اللغة التى يتحدث بها شقيقها ، والتى كانت تعبر بها عن حبه له .

وحدث أن مرت بالبلدة الألمانية الصغيرة فرقة من الممثلين الفرنسيين ، ومع أن انطوانيت لم تذهب إلى المسرح إلا نادراً (إذ لم يكن لديها الوقت ولا الميل لذلك) فقد شعرت بحاجة ملحة للذهاب إلى المسرح لتستمع إلى من يتكلمون بلغتها ، ولتلجأ فترة قصيرة إلى فرنسا . فوجدت الأماكن قد نفذت فقابلت الموسيقار الشاب جان كريستوف ، ولم تكن تعرفه . وعندما رأى علامات الإخفاق ترتسم على وجهها دعاها لتشاركه فى مقصورته الخاصة ، فقبلت دون

تفكير . ولكن نبأ وجودها مع كريستوف أشاع الثرثرة فى المدينة الصغيرة ، وسرعان ما وصلت الشائعات إلى أسماع آل جرونباوم وكان هؤلاء على استعداد تام لتصديق كل ما يشاع عن تلك الفتاة الفرنسية ، وكانوا من جهة أخرى شديدى السخط على كريستوف ، فاستغنوا عن خدمات انطوانيت فى جفاء .

أما هذه الفتاة البريئة ، ذات النفس المرهفة الخجول ، التى ملك عليها حبها لأخيها كل حواسها والتى لم يلحق بها أى دنس فكرى ، فكادت تموت خجلا عندما أدركت معنى الاتهامات الموجهة إليها ولم تتحامل لحظة واحدة على كريستوف ، فهى تعلم أنه برىء مثلها ، ولئن كان قد تسبب لها فى أذى فلقد أرادلها خيرا فكانت تحفظ له الجميل ، لم تكن تعرف عنه أى شىء سوى أنه موسيقار وأنه موضع انتقادات شديدة ورغم جهلها بما تنطوى عليه حياة الرجال فلقــد كان لديها شعور فطرى ، أرهفه البؤس ينبؤها بمـا فى النفوس وقد لاحظت أن هذا الشخص الذى جاورها فى المسرح قد ينقصه شىء من التربيـة ، وقد يكون شاذاً إلى حد ما ، ولكنه كان على سذاجة تماثل سذاجتها ، فيه رجولة مصحوبة بحنان . وكانت انطوانيت تشعر بالارتياح كلما تذكرت هـذه الصفات . وكل ما سمعته من سوء عن كريستوف لم يؤثر فى ثقتها به ، فلقد شعرت أنها أمام ضحية أخرى ، يتألم مثلها منذ زمن بعيد نتيجة لشرور من يفترون عليه . ولما كانت انطوانيت

قد اعتادت أن تغفل عن أمورها فى سبيل التفكير فى الغير فقد شغلتها إلى حد ما ، فكرة آلام كريستوف عن آلامها هى . وما كان لانطوانيت أن تسعى بأى حال من الأحوال لأن تلتقى به مرة أخرى أو أن تكتب إليه ، تمنعها من ذلك طبيعتها التى تجمع بين الحياء والكبرياء . وقدرت أن كريستوف يجهل الأذى الذى سببه لها . وتمنت لطيبة قلبها أن يجهل ذلك دائما .

ورحلت انطوانيت ، وشاء القدر أن يتقابل القطار الذى أقلها بعد ساعة من تركه المدينة مع قطار كريستوف العائد من مدينة مجاورة كان قد قضى فيها يومه . وتقابلت نظراتهما فى سكون الليل . عندما توقفت عربتاهما بضع دقائق جنباً إلى جنب . لكنهما لم يتكلما . وهل كانا فى وسعهما أن يتبادلا غير الكلام العادى ؟ هذا الكلام العادى الذى يحتمل أن يغض من قداسة شعورهما الغامض بالشفقة المتبادلة والاستلطاف الخفى ؟ هذا الشعور المجهول الذى نشأ بينهما ، والذى لم يكن يرتكز إلا على إحساس داخلى قوى . فى هذه اللحظة الأخيرة وعندما كانا لا يعرفان بعضهما ، تبادلا النظرات . ورأى كل منهما فى الآخر صورة تختلف تماماً عن تلك التى يراها فيهما كل من يعيشون معهما . إن كل شىء يمر . ذكرى الكلام والقبلات ، وتعانق الأجساد الحبيبة ، ولكن ذكرى الأرواح

التي التقت وتعارفت وسط حشد من الأشياء الزائلة لا تمحى أبدا .
هذه الذكرى كانت انطوانيت قد حملتها معها ضمن أسرار قلبها
الذي غمرته الأحزان ، تلك الأحزان التي بدأ يظهر من خلالها
ضوء خفي مثل النور الذي تسبح فيه جثة « أورفيه » التي تتحدث
عنها الأساطير .

والتقت انطوانيت بأوليفييه . كان الوقت قد حان لأن تعود . إذ أن أوليفييه كان مريضا . هذا الفتى العصبي المضطرب الذى كان يرتجف لمجرد فكرة المرض رفض وهو فى أشد حالات الألم أن يكتب لأخته خشية أن يقلقها . ولكنه كان يناديها فى سره ويتوسل إليها أن تعود كما لو كانت معجزة من السماء .

وتحققت المعجزة . كان حينئذ طريح الفراش فى مستشفى الليسيه محموما ، غارقاً فى أحلامه ،ولم يصرخ حين رأى انطوانيت ، فكم رآها فى الأوهام وهى تعود إليه ، ولكنه رفع قامته من على السرير وفغر فاه وهو يرتعد خوفاً من أن يكون ذلك وهما جديدا . ولما جلست انطوانيت إلى جانبه على السرير واحتوته بين ذراعيها والتصق هو بصدرها ، وشعر بنعومة خدها تحت شفتيه ، وبيديها اللتين أثلجتهما ليلة السفر ، عندما تيقن أنها أخته حبيبته ، أخذ يبكى . وهل كان فى استطاعته أن يفعل غير ذلك ؟ . . إنه ما زال ـ كما كان وهو طفل ـ كالطير الصغير . وأخذ يضمها إليه خشية أن تفر منه مرة أخرى . لكم تغير كلاهما ! . . ويا لمظهرهما الحزين ! . . ومع ذلك فماذا يهمهما ما داما قد التقيا ؟ لقد عاد كل شىء مضيئاً أمام عينيهما : المستشفى والليسيه ، والنهار المعتم . والآن وقد أمسك كل منهما بالآخر فلن

يفرق بينهما شيء بعد ذلك . وقبل أن تنبث انطوانيت ببنت شفة طلب منها أوليفييه أن تقسم له أنها لن تفارقه بعد ذلك . وما كان فى حاجة إلى ذلك . لا ، إنها لن ترحل بعد ذلك . لقد ذاقا مرارة الألم وهما بعيدان كل عن الآخر ،كانت أمهما على حق عندما كانت تقول أن أى شيء فى الدنيا أهون من الفراق ، حتى البؤس وحتى الموت يهونان بشرط أن نعيش معا .

وأسرعا فاستأجرا مسكنا . كانا يودان العودة إلى مسكنهما القديم رغم رداءته لولا أنه كان قد شغل . أما المسكن الجديد فكان هو أيضا يطل على فناء وكانت هناك شجرة طلح صغيرة تبدو من وراء حائط ، لم يلبثا أن تعلقا بها كما لو كانت صديقا ريفياً سجيناًمثلهما وسط شوارع المدينة . وسرعان ما استعاد أوليفييه صحته أو ما تعودا على تسميته كذلك (فالصحة بالنسبة لأوليفييه كانت تبدو مرضا بالنسبة لشخص آخر أقوى منه) إن رحلة انطوانيت إلى ألمانيا كانت كئيبة ، إلا أنها عادت منها بشيء من المال وزاد دخلها من ترجمة كتاب ألمانى قبل أحد الناشرين أن يطبعه لها . وابتعدت الأزمات المالية عنهما مـــدة من الزمن . وكان ممكناً أن يسير كل شيء على ما يرام إذا نجح أوليفييه فى نهاية العام . ولكن ماذا يحدث ياترى إذا لم ينجح أوليفييه ؟

وبدأ شبح الامتحان يقترب منهما بعد أن عادا يشعران بلذة العيش سويا ،كانا يتجنبان الكلام فى هذا الموضوع ، ولكن عبثاً

حاولا ذلك ، فقد كانا دائماً يعودان إليه . إن فكرة الامتحان كانت تطاردهما فى كل مكان حتى إذا حاولا الترويح عن نفسيهما ، تقفز تلك الفكرة فجأة وسط لحن من ألحان حفلاتهما الموسيقية ، حتى فى الليل كانا يستيقظان ليجداها أمامهما كالهوة العميقة . كان أوليفييه شديد الرغبة فى تخفيف آلام أخته وفى تعويضها عن شبابها الذى ضحت به من أجله ، إلا أنه كان إلى جانب ذلك شديد الفزع من الخدمة العسكرية التى كان من المستحيل تجنبها إذا لم ينجح (وفى ذلك الوقت كان القبول فى المدارس العليا يعفى من الخدمة العسكرية) . وسواء أكان على حق أم لم يكن ، فقد كان يشعر باشمئزاز خفى من هذا الاندماج الجسدى أو المعنوى ومن ذلك الانحلال الذهنى الذى يراه فى حياة الثكنات . كل ما كان لديه من أرستقراطية وطهر كان يدفعه إلى الثورة على هذا الالتزام وربما فضل عليه الموت . وهذا شعور يجب على المرء أن يسخر منه ، بل أن يزدريه باسم الأخلاق التى أصبحت دين العصر الحديث ، ولكن لا يستطيع أن ينكر هذا الشعور إلا الأعمى ، فليس هناك شىء أعمق من هذا الشعور بالألم ، ألم الوحدة الخلقية الجريحة من اعتداء المشاعر الجماعية الغليظة عليها .

وأعيد الامتحان مرة أخرى وكاد أوليفييه ألا يؤديه لأنه كان متعبا . وكان شديد الخوف من الاضطرابات النفسية التى كان عليه أن يجتازها فى الامتحان سواء نجح أم رسب . كان يخشاها لدرجة

جعلته يكاد يتمى لو مرض تماما . إلا أنه اجتاز الامتحان التحريرى بشكل مرض هذه المرة ، ولـكن كم كان يشق عليه انتظار نتيجة هذا الامتحان اولقد كان من التقاليد العتيقة فى بلدالثورة الفرنسية الـكبرى وهى أكثر بلاد العالم تمسكا بالروتين ، أن تعقد الامتحانات فى أشد أيام السنة حرارة ، فى شهر يوليو ، كما لو أنهم يتعمدون الاجهاز على أولئك المساكين بعد أن أثقلت كواهلهم تلك البرامج الطويلة التى قاموا بتحضيرها والتى لا يعرف واحد من ممتحنيهم عشر ما فيها ، وأعلنت نتيجة البحوث الأدبية فى اليوم التالى لعيد ١٤ يوليو ، ولتلك الضوضاء الشعبية وهذا المرح الذى يبدو ثقيلا على نفوس غير المرحين والذين هم فى حاجة إلى السكون . وأقيمت حلقـة للألعاب الشعبية فى الميدان الذى كان يجاور منزلهما وكانت الطلقات النارية تتلاحق ، ويرتفع عويل الخيول الخشبية التى كانت تديرها الآلات البخارية ، كما كانت تسمع صيحات الصناديق الموسيقية من الظهر حتى منتصف الليل. واستمرت هذه الأضواء ثمانيـــة أيام بأكملها، ثم سمح رئيس الجمهورية ، دعاية له ، بنصف أسبوع آخر لأصحاب هذه الألعاب الصاخبة ، وما كان ذلك ليكلفه شيئا ما دام لايسمعهم ، إلا أن أوليفييه وانطوانيت أنهكتهما الضوضاء وأخذت تدق على رأسيهما واضطرتهما إلى إغلاق النوافذ والاختناق داخل الحجرة ، فـكانا يصمان آذانهما محاولين دون جدوى أن يهربا من شبح تلك الألحان السخيفة التى كان صريرها يظل مرتفعاً من الصباح حتى المساء ،

والتى كانت تخترق رءوسهما كأنها ضربات سكين ، كان الشقيقان يئنان من شدة الألم .

وبدأت الامتحانات الشفوية بعد إعلان نتيجة الامتحان التحريرى بفترة وجيزة ، وتوسل أوليفييه إلى شقيقته أن لا تحضر معه هذا الامتحان . فانتظرت هى بباب القاعة وكانت أكثر منه خوفاً . ولم يحدث قبل ذلك أن قال لها أنه مرتاح إلى طريقة أدائه الامتحان قبل هذه المرة بل كان يشغل بالها بذكر ما قاله وما لم يقله فى الامتحان .

وجاء يوم النتيجة النهائية وأعلنت أسماء الطلبة الناجحين فى فناء السوربون . فلم تشأ انطوانيت أن تترك شقيقها يذهب إليها وحده . كان كل منهما أثناء مغادرته للمنزل يفكر — دون أن يصرح للآخر — كيف أنهما عند عودتهما إلى هذا المنزل سيكونان على علم بالنتيجة ، وربما شعرا حينئذ بالأسف على هذه اللحظات التى قضياها خائفين بالرغم مما تبقى لهما من أمل . واقتربا من السوربون فشعرا بأرجلهما تخور وقالت انطوانيت لأخيها — هى التى تعودت أن تكون شجاعة :

— لا تمشى مسرعاً هكذا ، أرجوك .

ونظر أوليفييه إلى شقيقته التى حاولت أن تبتسم وقال لها :

— ألا تريدين الجلوس لحظة على هذا المقعد ؟

وتمنى أوليفييه ألا يكمل طريقه لولا أن شدت انطوانيت على يده بعد لحظة وهي تقول :

— لست متعبة ياصغيرى ، لنواصل سيرنا .

ولم يهتديا إلى كشف الأسماء فى أول الأمر فقرأ كشوفاً كانت كلها خالية من اسم جانان وأخيراً وقع نظرهما على الاسم فلم يدركاه فى بادىء الأمر بل أخذا يعيدان قراءته دون أن يصدقا ما يريان . ولما تأكدا من صحة الأمر ومن أن جانان هو أوليفييه وأنه قد نجح فى الامتحان لم ينبثا ببنت شفة وعادا مسرعين إلى المنزل . كانت انطوانيت ممسكة بذراع شقيقها وبمعصمه ، أما هو فكان متكئاً عليها. كادا يعدوان وهما سائران لا يريان شيئاً مما حولهما وعرضا نفسيهما للخطر وهما يعبران الطريق وكل منهما ينادى الآخر :

— ياصغيرى . . . ياصغيرتى . . . !

وصعدا إلى المنزل وكانا يثبان درجات السلم أربعا أربعا ، وما كادا يصلان إلى غرفتهما حتى تعانقا . ثم أمسكت انطوانيت يد شقيقها واقتادته حيث علقت صورة أبيهما وأمهما بجوار السرير فى أحد أركان الغرفة التى كانت عندها بمثابة المحراب ، وركعا معاً أمام الصور واسترسلا فى بكاء صامت .

وأعدت انطوانيت طعاماً شهياً للعشاء ، لكنهما لم يقربا منه فقد كانا لا يشعران بالرغبة فى الأكل ومرت بهما السهرة وأوليفييه يجلس تحت أقدامها أو على ركبتيها وهى تدلله كأنه طفل صغير . وكادا ألا يتكلمان فما كانا يملكان بمجرد القوة التى تجعلهما يشعران بالسعادة ، كانا قد تحطما . ورقدا فى الفراش قبل الساعة التاسعة واستغرقا فى نوم عميق .

وفى اليوم التالى بدأت انطوانيت تعانى من صداع أليم بالرغم من أنها تخلصت من الحمل الذى كان يثقل قلبها،وخيل إلى أوليفييه أنه بدأ أخيراً يتنفس بحرية ، لقد أنقذ ، أنقذته أخته . . أخته التى أدت رسالتها على أكمل وجه ، أما هو فقد أثبت أنه جدير بما علقت عليه أخته من آمال ! . . ولأول مرة بعد سنوات ، بعد سنوات طويلة . . استسلما للكسل ، ظلا راقدين حتى الظهيرة يتحدث كل منهما إلى الآخر من سريره ، وقد تركا باب الغرفة مفتوحا . كل منهما يرى الآخر فى مرآة كانت بالغرفة تعكس صورة وجهيهما اللذين يفيضان بالسعادة وإن بدا عليهما الانتفاخ من شدة التعب ، كانا يبتسمان ويتبادلان القبلات من بعيد ثم يغلبهما النعاس من جديد فيراقب كل منهما صاحبه أثناء نومه وقد حطمتهما شدة التعب فأصبحا لا يقويان إلا على النطق ببعض الكلمات الرقيقة القصيرة .

وظلت انطوانيت تدخر قرشاً على قرش حتى يصبح لها ولأخيها مبلغ صغير يلجآن إليه فى حالة المرض . ولم تكن بعد قد أخبرت أوليفييه بالمفاجأة التى تعدها له بهذا المبلغ . وفى اليوم الذى تلا نجاحه أبلغته أنهما سيرحلان لقضاء شهر فى سويسرا مكافأة لهما على السنوات الماضية المليئة بالشقاء . ولما كان أوليفييه حينئذ واثقاً من قضاء ثلاث سنوات فى مدرسة المعلمين العليا على نفقة الدولة ومن الالتحاق بوظيفة بعد تخرجه فقد أصبح فى إمكانهما الإسراف فى النفقات حتى ولو أدى ذلك إلى استنفاد كل ما يملكان من مال . واستقبل أوليفييه هذا النبأ بصيحات من الفرح ، أما انطوانيت فكانت أسعد منه : كانت سعيدة بنشوة أخيها وسعيدة لأنها أخيرا ستحظى برؤية الريف مرة أخرى وكانت فى شدة الشوق إليه .

وشغلتهما استعدادات السفر بدرجة بالغة ، ولكنها كانت تسعد كل لحظاتهما . وعندما سافرا كان قد انقضى جزء من شهر أغسطس . ولما لم يكونا قد تعودا من قبل كثرة السفر فإن أوليفييه لم ينم الليلة السابقة للرحيل كما أنه لم ينم فى الليلة التى قضاها فى القطار ، فقد خشى طيلة اليوم أن يفوتهما القطار . وفى المحطة أسرعا فى اضطراب وسط الحشود المتدفقة . ثم ركبا فى ديوان من الدرجة الثانية حيث جلسا

وهما متضايقان ولم يجدا شيئا يستندان عليه ليناما (وكانت هذه هى إحدى الامتيازات التى تحاول بواسطتها الشركات الفرنسية المتغالية فى ديمقراطيتها حرمان المسافرين الفقراء من الراحة لتتيح للأثرياء فرصة التفكير فى أنهم هم وحدهم الذين ينعمون بالراحة) ولم يغمض لأوليفييه جفن لحظة واحدة. لم يكن دائماً متأكداً تماما من أن قطاره هو القطار المطلوب، فظل يترقب أسماء المحطات. أما انطوانيت فكان يداعبها النعاس فأخــذت تستيقظ بين الحين والحين. كانت حركة العربات تهز رأسها هزاً عنيفا، وكان أوليفييه ينظر إليها على ضوء المصباح الحزين الذى يعلو تلك التوابيت المتجولة، وقد أدهشه تغير ملامحها. بدت عيناها غائرتين وتركت فمها الذى يشبه فم الطفل ينفتح قليلا فى ملل وسأم. كان لون بشرتها مصفراً كما أن تجاعيد صغيرة كانت قد أذبلت خدودها حيث بدت آثار الأيام البائسة، أيام الحزن واليأس. وبدى عليها الكبر والمرض. لشد ما كانت متعبة. وليتها كانت تجرؤ على تأخير السفر ولكنها لم تشأ أن تفسد على شقيقها فرحته. ولذا أرادت أن تقنع نفسها بأن التعب هو الذى يسبب لها هذه الآلام التى لن تلبث زيارتها للريف أن تبددها. آه!.. كم كانت تخشى أن تمرض أثناء الطريق!.. وأحست انطوانيت حينئذ أن أوليفييه ينظر إليها فتخلصت بجهد من حالة الخمود التى كانت تخيم عليها ثم فتحت عينيها، عينيها اللتين ظلتا صافيتين ناصعتين تفيضان شبابا، واللتين قد يمر فيهما من حين إلى حين نظرة خوف لا إرادى تشبه

مرور السحب فوق بركة صغيرة . وسألها أوليفييه عن حالتها بصوت خافت وقلق يملؤه الحنان . فأمسكت بيده وأكدت له أنها بخير . إنه كلمة عاطفية واحدة كانت كفيلة بأن تعيد إليها حيويتها .

وعندما بسط الفجر أضواءه الوردية فوق الريف الشاحب بين بلدة دول دبو ترلييه ظهر منظر الحقول وهى تستيقظ والشمس الباسمة وهى تهرب مثلهما من سجن الشوارع والمنازل المتربة ودخان باريس الكثيف. كأن الضباب الخفيف يلف المراعى المتماوجة بأنفاسه البيضاء كاللبن . وكانت كل معالم الطريق تستوقف انتباه انطوانيت وأخيها : برج صغير لكنيسة إحدى القرى ، جدول ماء يشق طريقه ، ومجموعة من التلال ترسم خطاً أزرق يحلق فى الأفق البعيد ، أو صوت أجراس خافتة حزينة يأتى بها النسيم من بعيد إلى أسماعهم عندما يتوقف القطار وسط الريف الناعس ، وقطيع من الأبقار يقف فى هيئة وقورة مستسلما للاحلام على مرتفع فوق الطريق . كل هذه الأشياء كانت تستلفت أنظار انطوانيت وأخيها ، بدا كل شىء فى نظرهما جديداً ، كانا كشجرتين جفتا تستقبلان مياه الأمطار بشغف كبير .

وفى الصباح كان عليهما أن يمرا بالجمرك السويسرى فى محطة صغيرة وسط الريف : كانا يشعران بالتعب أثر ليلة السفر الشاقة ، وكانا يرتعدان قليلا من برودة الفجر ورطوبته ، ولكن الهدوء

كان سائدا والسماء صافية وأنفاس المروج تصعد من حولها فتدرك الأفواه والألسن ثم تتغلغل فى الحناجر حتى تصل إلى داخل الصدور كأنها جدول صغير . وتناول أوليفييه وأخته على منضدة فى الخلاء فنجاناً من القهوة الساخنة المنعشة الممزوجة باللبن الدسم العذب الذى تشبع برائحة الأعشاب وزهور الحقول .

ثم ركبا بعد ذلك عربات القطار السويسرى وكان معداً بطريقة حديثة سرا لها سرور الأطفال . ولكن انطوانيت كانت تشعر بخمول شديد ولم تعرف سبباً لهذا الاضطراب الذى تملكها ولم تشعر إلا بقسط بسيط من السعادة مع أنها كانت ترى كل شىء جميلا من حولها وممتعاً للغاية ، ألم يكن ذلك هو كل ما تمنته منذ سنوات : سفر جميل وشقيقها بجانبها وسط الطبيعة الجميلة ، بينما قد زالت من أمامها هموم المستقبل ماذا بها إذن ؟ وأخذت تلوم نفسها على هذا التفكير وترغم نفسها على الإعجاب بما تشاهد وعلى مشاركة أخيها مرحه الساذج . . . .

وتوقفا فى بلدة تون كان عليهما أن يرحلا منها إلى الجبل فى اليوم التالى ، ولكن حدث وهما بالفندق أثناء الليل أن انتابت انطوانيت حمى شديدة مع قىء وآلام فى الرأس . ولم يلبث أوليفييه أن طار عقله وقضى ليلة وهو فى أشد حالات القلق ، وفى الصباح كان لا بد من استدعاء الطبيب . (وكانت تلك زيادة غير منتظرة فى المصاريف ،

ولا هى باليسيرة بالنسبة إلى ميزانيتهما المحدودة) ولم تكن انطوانيت فى خطر ولكن الطبيب وجدها فى حالة إرهاق بالغة وانهيار فى صحتها . ولم يعد هناك أى تفكير فى مواصلة الرحلة بعد ذلك مباشرة . فقد حذر الطبيب انطوانيت من القيام طول النهار وأفهمهما أنها ربما احتاجت إلى الإقامة فى بلدة تون مدة أطول مما تظن . وأسفا لذلك رغم أنهما سرا للتخلص من هـــذه الشدة بهذا الثمن البسيط بعد ما ساورهما من مخاوف . ولكن كان من الصعب عليهما أن يقطعا كل هذه المسافة ليحبسا نفسيهما فى غرفة بهذا الفندق رديئة التهوية تضرب فيها الشمس المحرقة كما لو كانت بيتاً زجاجياً لتربية النباتات . وأبدت انطوانيت رغبتها فى أن يخرج أخاها للنزهة . وخطى أوليفييه بضع خطوات خارج الفندق ورأى جبل «الآر» بردائه الأخضر الجميل بينما ظهرت على البعد قمة بيضاء تحلق فى أعلى السماء . لقد اضطرب أوليفييه سروراً أمام هذا المنظر ولكنه لما لم يكن قد تعود التمتع بمثل هذه البهجة بمفرده فقد عاد مسرعاً إلى غرفة شقيقته وقص عليها كل ما رآه . ولما أبدت انطوانيت دهشتها لعودته المبكرة وحثته على مواصلة نزهته أجابها كما كان يجيبها فى الماضى عندما يعود من إحدى حفلات شاتليه الموسيقية .

— لا ، لا ، إن هذه المناظر جميلة للغاية ويؤلمنى ألا نراها سويا .

لم يكن هذا الشعور جديداً بالنسبة إليهما . كانا على يقين أنه لا بد

وأن يكونا معاً ليكونا فرداً كاملا ولكن كان كل منهما يجد لذة كبيرة فى أن يسمع أخاه يؤكد له ذلك . وكانت هذه الكلمات الرقيقة أقوى أثراً على انطوانيت من أى دواء لدرجة جعلتها تبتسم لها فى سعادة وفتور . وبعد أن قضت ليلة هادئة ، ورغم أن مواصلتها للسفر كانت تعرضها لشىء من الخطورة فقد قررت انطوانيت أن يهربا فى ساعة مبكرة دون إخطار الطبيب الذى خشيا أن يحجزهما مدة أخرى . وكانت مجازفة مرت بسلام ، فالهواء النقى وسرور انطوانيت لرؤيتها الأشياء الجميلة مع أخيها جعلهما يصلان دون متاعب جديدة إلى نهاية الرحلة ، إلى قرية فى الجبل تطل على بحيرة قريبة من بلدة سبير .

وهناك قضيا نحو ثلاثة أسابيع أو أربعة فى أحد الفنادق الصغيرة. ولم تعاود الحمى انطوانيت ومع ذلك فهى لم تعد كما كانت أبدا . فقد أخذت تشعر بثقل فى رأسها — ثقل غير محتمل ، وبانحراف دائم فى صحتها — وكان أوليفييه يستفسر كثيراً عن صحتها إذ كان يتمنى أن يرى وجهها أقل شحوباً ، وكان جمال البلدة يسكره فيحاول — بغريزته — إبعاد الأفكار الكئيبة عن نفسه ويميل إلى تصديق انطوانيت عندما تؤكد له أنها بصحة طيبة ، رغم معرفته — فى قرارة نفسه — أن الحقيقة تناقض ذلك . ومع كل فإنها كانت تتمتع كل التمتع بما يبدو على أوليفييه من فرحة ، كما كانت تستمتع بالهواء وبالراحة على الأخص ، يالها من متعة أن تستريح أخيراً بعد تلك السنوات الشاقة .

وكان أوليفييه يريد أن يصطحبها فى كل نزهاته وكان بودها أن تشاركه فى جولاته . ولكن كثيراً ما حدث أن رحلت معه وكلها حماس ولكنها بعد ثلث ساعة كانت تضطر إلى التوقف عن السير وهى تلهث وقلبها يخفق . حينئذ كان أوليفييه يواصل جولاته بمفرده — ويتسلق الجبال التى لا خطورة فى تسلقها ، وإن كان ذلك يجعل أخته ترتجف خوفاً عليه حتى ساعة عودته . وفى أحيان أخرى كانا يقومان معاً بنزهات قصيرة فتتكىء هى على ذراعيه ويسيران فى خطى وئيدة وهما يتجاذبان أطراف الحديث ، ويكثر أوليفييه حينئذ من الكلام ويضحك وهو يحدثها عن مشروعاته ، أو يقص عليها ما يضحكها ، ومن طريق جانبى فى أعلى الوادى كانا يريان السحب البيضاء وهى تنعكس فى مرآة البحيرة الساكنة والسفن وهى تسبح كالحشرات التى تطفو فوق مياه بركة صغيرة .وكانا يستنشقان الهواء دافئاً ممزوجاً بالموسيقى التى تنبعث من الأجراس المعلقة برقاب البقر وتحملها الرياح من بعيد من حين لآخر ومعها رائحة الحشائش المقطوعة والأصماغ الدافئة . ويستسلمان معاً لأحلام الماضى ولأحلام المستقبل ولأحلام حاضرهما الذى بدا لهما أجمل الأحلام وألذها سحرا كانت انطوانيت أحياناً تستسلم لمرح شقيقها الصبيانى فتلهو معه ويجريان وراء بعضهما أو يتقاذفان الحشائش . وأخيراً رأى أوليفييه شقيقته تضحك ملء فمها كما كانت تفعل فى الصغر فى عهد الطفولة الذى لا يعبأ بشىء ،

تلك الضحكة التي لم يسمعها منذ سنوات مضت ، والتي تشبه مياه الينبوع في صفائها .

ولكن أوليفييه في أغلب الأحيان كان لا يستطيع أن يقاوم رغبته في القيام بالرحلات الطويلة ، وبعد عودته منها يشعر بشيء من تأنيب الضمير . وحدث أن أنب نفسه فيما بعد لأنه لم يستمتع كما كان ينبغي بالأحاديث الحبيبة إلى نفسه مع شقيقته ، وكثيراً ما كان يتركها بمفردها في الفندق . وكان هناك ناد يجمع بين الشبان والشابات ظلا مبتعدين عنه في أول الأمر . إلا أنه حدث فيما بعد أن انجذب نحوهم أوليفييه رغم خجله ثم انضمَّ إليهم . كان محروماً من الأصدقاء حتى ذلك الوقت . ولم يعرف من الأصدقاء فيما عدا شقيقته إلا زملاءه الفظين في الليسيه وصديقاتهم الذين كانوا يسببون له النفور . وشعر بشيء من السعادة لوجوده بين فتيان وفتيات في نفس سنه مؤدبين ، محبوبين ومرحين . وبالرغم من نفور أوليفييه من الناس فقد كان محباً للاستطلاع في شيء من السذاجة وكان له قلب عاطفي ذا إحساسات بريئة . ينجذب لتلك الأضواء الخافتة التي كانت تلمع في أعين النساء المحيطات به . وكان هو أيضاً يعجبهن على الرغم من خجله . كانت تلك حاجته البريئة إلى أن يحب ويشعر بأنه محبوب تضفي عليه — دون علمه — لوناً من مرح الشباب وتجعله يتكلم ويأتي بحركات وبأعمال محبوبة لا تلبث ما بها من خجل أن تجعلها أكثر جاذبية . كان جذاباً بطبيعته وبالرغم

من أن ذكاءه الذى أصبح حاد السخرية فى وحدته ، أظهر له من سفالة الناس ومن عيوبهم ما يجعله يبغضهم ، بالرغم من ذلك كله كان أوليفييه عندما يتواجد أمامهم لا يرى إلا عيونهم التى تعبر عن نفوس ستموت يوماً ما ، نفوس أشخاص لن يكون لهم إلا حياة واحدة مثله سيفقدونها مثله فى زمن قريب ، وحينئذ يشعر نحوهم بعطف غير إرادى ولا يجد فى نفســه القدرة على أن يأتى نحوهم بأى أذى : وسواء أراد أم لم يرد فقد شعر أن عليه أن يكون لطيفا . كان أوليفييه ضعيفا وهذا يعجب الناس الذين فى استطاعتهم مغفرة كل الرذائل — وكل الفضائل — فيما عـــدا واحدة ، ألا وهى القوة وهى أساس كل شىء آخر .

لم تندمج انطوانيت فى هذا الجمع من الشباب إذ كانت صحتها المتعبة وانحطاط حالتها المعنوية دون أى سبب ظاهر — كل هذه الأمور مجتمعة كانت تشلها وقد حدث خلال السنين الطويلة التى قضتها وسط الهموم والعمل المضنى ، تلك السنين التى تبلى الجســد والروح ، حدث أن انقلبت الأوضاع وقامت هى بواجب الشقيق ولذا كانت تشعر حينئذ أنها بعيدة عن العالم ، بعيدة عن كل شىء بعداً كبيرا . . وبأنها لم يعد فى مقدورها أن تعود إليه . إن الأحاديث والضوضاء والضحك والمصالح التافهة ، كل ذلك أصبح يضايقها الآن ويتعبها، وربمـا يجرح شعورها . إن انطوانيت كانت تتألم لذلك الأمر وكانت تود لو شابهت

الفتيات الأخريات ، وأن تهتم بما يهتمون به تضحك لما يضحكون له . إن ذلك لم يعد فى مقدورها! .. كانت تشعر بانقباض فى القلب ، تشعر وكأنها ماتت . وفى المساء كانت تغلق غرفتها عليها وكثيراً ما كانت تبقى فى الظلام دون أن تشعل المصباح . كانت تجلس هكذا بينما أوليفييه فى الصالون بالطابق الأسفل يستسلم لحب عارض خيالى . وكان ذلك إحدى الحالات العاطفية التى كثيراً ما كانت تنتابه . ولا تخرج انطوانيت من خمولها إلا عندما تسمع شقيقها يعود إلى الطابق الأعلى وهو يضحك ويثرثر مع صديقاته ويبادلهن على باب غرفتهن تحيات الوداع التى لا نهاية لها والتى تحول دون عزمهم على الفراق . وحينئذ كانت انطوانيت تبتسم وسط الظلام وتنهض لتوقد المصباح ، إن ضحكة واحدة من أخيها كانت كفيلة بأن تبعث إليها الحياة .

كان الخريف قد اقترب وبدأت الشمس تنطفىء شيئاً فشيئا ، والطبيعة تذبل والألوان تفقد زهوتها تحت غيوم وسحب شهر اكتوبر . وسقط الثلج فوق المرتفعات وكسا السهل الضباب . فرحل المسافرون أفراداً ثم جماعات وعمت الكآبة على الجميع لفراق الأصدقاء ، وحتى الغرباء ، ولرحيل فصل الصيف على الأخص ، فصل السكون والسعادة الذى كان كروضة وسط الحياة .

وتنزها الشقيقان سوياً مرة أخيرة ذات يوم من أيام الخريف

الغائمة وسط غابة على سفح الجبل . ولم يتحدثا . كانا يحلمان فى تأثر ويقترب كلاهما من الآخر وهما يرتجفان من البرد وقد التفا فى معطفيهما ورفعا ياقته وسارا متشابكى الأصابع . كانت الخمائل الرطبة صامتة وكأنها تبكى فى سكون بينما كانت تأتى من أعماق الغابة صرخات خافتة وخائفة لطير وحيد شعر باقتراب الشتاء ثم رنين جرس لقطيع يدوى فى الضباب ، بعيداً يكاد لا يسمع وكأنما يدق فى أعماق صدورهما .

ثم عادا إلى باريس وهما مكتئبان . ولم تستعد انطوانيت صحتها .

وكان على انطوانيت أن تهتم بما يلزم أوليفييه من ملابس عند عودته إلى المدرسة . فكلفها ذلك كل ما أدخرته بل أنها باعت حليها سراً . وماذا يهمها ؟ لا شك أنه سيعوضها عن ذلك في المستقبل . . ثم أنه لن يصبح لها مطالب كثيرة بعد أن يرحل أوليفييه ! . . . كانت تمنع نفسها من التفكير فيما سيحدث لها بعد أن يصبح أوليفييه بعيداً عنها ؛ وأخذت تعمل فى تجهيز ملابس شقيقها ، كل ما لديها من حنان وحب نحو أخيها وضعته فى هذا العمل الذى أحست أنه آخر شىء تقدمه له .

وأصبحا لا يفترقان فى الأيام الأخيرة التى يقضيانها معاً خشية أن تضيع منها لحظة واحدة . وسهرا معاً فى الليلة الأخيرة بجانب المدفأة انطوانيت جالسة على الكرسى الوحيد فى المنزل وأوليفييه على مقعد صغير تحت أقدام أخته تاركا إياها تلاطفه فقد اعتاد أن يكون معها كالطفل الكبير المدلل . كان مشغول البال ومهتما أيضاً بالحياة الجديدة التى هو مقبل عليها . وخطر لانطوانيت أن ما بينهما من ود عميق قد انتهى وأخذت تتساءل فى فزع عما عساه يحدث لها . وكأنما أراد أوليفييه أن يزيد من آلامها فأبدى فى هذه الليلة من الحنان ما لم يبده أبدا ، تماماً كما يفعل أولئك الذين ينتظرون ساعة الرحيل ليظهروا فى دلال برىء أحسن ما فى نفوسهم وأرقه . وجلس أمام البيانو

وأخذ يعزف طويلا أنغام موزار وجلوك التى كانا يعشقانها أكثر من غيرها : تلك الأنغام التى تصور لمحات من السعادة والحنان كما تصور من صفاء النفس الحزينة والتى كثيراً ما اختلطت بأحداث حياتهما الماضية .

وحانت ساعة الفراق ورافقت انطوانيت أخاها حتى باب المدرسة ثم عادت إلى المنزل لتجد نفسها وحيدة مرة أخرى . ولقد تغير الحال الآن عما كان عليه أثناء رحلتها إلى ألمانيا ، إذ لم يعد فى استطاعتها أن تضع لنفسها حدا للفراق إذا لم تتحمله . أما هذه المرة فبقيت هى ورحل أوليفييه ، إلى أمد بعيد — رحل لمدى الحياة . ولقد كانت تشعر نحو أخيها بحنان الأمومة لدرجة جعلتها تفكر فى أخيها فى أول لحظات الفراق أكثر مما تفكر فى نفسها . وشغلت نفسها بتلك الأيام الأولى من حياته الجديدة التى اختلفت تماماً عن حياته السابقة . وأخذت تفكر فى ألاعيب تلاميذ تلك المدرسة وفى هذه المضايقات البسيطة التى كثيراً ما تتخذ أشكالا مخيفة فى أذهان أولئك الذين يعيشون فى الوحدة والذين تعودوا — مثل انطوانيت — أن يعذبوا أنفسهم بالتفكير فيمن يحبون . ولو أن هذا الانشغال قد عاد عليها بفائدة إذ خفف بعض الشيء من وحدتها . وسرعان ما فكرت فى نصف الساعة التى سترى شقيقها خلالها فى اليوم التالى فى قاعة استقبال المدرسة . ووصلت إلى هناك قبل موعدها بربع ساعة . وكان أوليفييه

لطيفاً معها غير أنه كان مشغولا ومسروراً بما رآه من حياته الجديدة .
وعادت لزيارته فى الأيام التالية وهى تفيض حباً وقلقاً عليه . وزداد التباين
بينهما على مقدار اهتمام كل منهما بتلك اللحظات التى يلتقيان فيها .
كانت تلك اللحظات بالنسبة لانطوانيت كل شىء فى الحياة . أما أوليفييه
فإن كان يحب أخته إلا أن أحداً لا يستطيع أن يطالبه بأن يفكر فى
أخته وحدها . ولقد حدث مرة أو مرتين أن جاء متأخراً إلى قاعة
الاستقبال ولما سألته فى أحد الأيام إن كان يتضايق أجابها بالنفى .
كانت تلك الأشياء كضربات خفيفة من خنجر تسدد نحو قلب
انطوانيت . وعاتبت نفسها على هذه الحساسية من ناحيتها واعتبرت نفسها
أنانية ، كانت تعلم جيداً أن عدم استطاعته الاستغناء عنها وعدم استطاعتها
الاستغناء عنه وألا يكن لها من هدف غيره فى الحياة ، شىء لا يعقل ،
بل أمر سىء مخالف للطبيعة . نعم كانت تعرف كل ذلك ولكن ماذا
تفيدها تلك المعرفة ؟ أنها لا تقوى على شىء ، ما دامت قد وهبت كل
حياتها منذ عشر سنوات للتفكير فى شىء واحد : فى أخيها . والآن
وقد انتزع منها الشىء الوحيد الذى يهمها فى الحياة ، أصبحت لا تملك
شيئا .

وحاولت بكل شجاعتها أن تشغل نفسها بأعمالها ، بالقراءة ،
بالموسيقى ، بالكتب الحبيبة إلى نفسها . . يا إلهى ! إن شكسبير ،
إن بيتهوفن أصبحا لا معنى لهما بعد أن أصبحت بغير أخيها !. . .

نعم كان كل منهما شيئا جميلا ولاشك .. ولكن لم يعد هناك أوليفيه !
وما فائدة الأشياء الجميلة إذا لم تراها عيون الإنسان الحبيب ؟ وماذا
تفعل بالجمال ، بل وماذا تفعل بالهناء إذا لم نشعر بهما فى قلب من يحب ؟

ليتها كانت تملك من القوة ما تستطيع به أن تغير مجرى حياتها
نحو هدف آخر . ولكنها كانت منهكة . الآن بعد إن لم يعد هناك
ما يضطرها إلى المقاومة ، مهما كلفها ذلك من مشاق ، تحطم المجهود
الذي فرضته إرادتها عليها وانهارت هى الأخرى . وعندئذ وجد
المرض أرضاً خصبة فى جسدها الذى كان مستعداً له منذ أكثر من
عام ، بينما كانت من قبل تتغلب على هذا المرض بنشاطها .

وأخذت تقضى لياليها فى المنزل وحيدة ، مستسلمة لهمومها وهى
جالسة إلى المدفأة المطفأة . فلم تكن تملك الشجاعة لتشعل نارها مرة
أخرى ، كما لم تكن تملك مجرد القوة التى تساعدها على الذهاب إلى
الفراش ، فتظل جالسة ترتعد من البرد حتى منتصف الليل مستسلمة
للنعاس والأحلام ، وتبدأ فتستعيد ذكريات حياتها مع من فارقتهم ،
مع أوهامها التى تبددت ، وتشعر حينئذ بحزن شديد على شبابها الذى
ولى بغير حب ، وتشعر بألم لا تعرف مصدره أو لا تريد الاعتراف
به . . . وهى تشعر به كلما تناهى إلى سمعها ضحكة طفل يمر بالطريق ..
أو وقع خطواته المترددة فى الدور الأسفل من المنزل . . بأقدامه
الصغيرة التى كانت تمشى فوق قلبها ! . . . ووقعت فريسة للشكوك ،

للافكار الشريرة ، فريسة للانانية التى انتقلت عدواها من هذه المدينة اللاهية إلى روحها التى بدأ الضعف يسرى فيها ، كانت تحارب الندم وتخجل من رغباتها ولم تكن تفهم سبباً لما يعتريها من عذاب ، وإن كانت ترجع ذلك إلى الغرائز الشريرة . أن « أوفيليا » الصغيرة المسكينة التى وقعت بين براثن الشر المجهول ، أخذت تشعر بالفزع من هذه العاصفة المضطربة التى تصعد من أعماق نفسها ، من أعماق الحياة . . ولم تعد تعمل شيئا . هجرت معظم دروسها ، هى التى كانت تستيقظ مبكرة ، أصبحت لا تغادر سريرها قبل الظهيرة أحيانا ، بل أصبح سواء لديها أن تنام أو تستيقظ ، لم تعد تأكل إلا ما يقيم أودها أو لا تأكل على الإطلاق ، إلا أنها بعد ظهر كل خميس ومنذ صباح كل يوم أحد . عندما يحصل أخوها على أجازة ، كانت تحاول أن تبدو معه ، كما كانت فى الماضى . .

ولم يلاحظ أوليفيه شيئا . فقد أعجبته حياته الجديدة أو هى اجتذبته لدرجة جعلته لا يلتفت كثيراً إلى أخته . كان يمر بفترة من فترات الشباب التى لا يبوح فيها الشاب بما فى نفسه بسهولة والتى يبدو فيها غير مكترث لأشياء قد تأثر بها فى الماضى وإن ظهرت أهميتها فيما بعد . والمتقدمون فى العمر كثيراً ما تظهر لديهم مشاعر أنضر من شباب فى العشرين كما يتمتعون فى براءة بمباهج الطبيعة والحياة أكثر منهم ، وحينئذ يقال أن قلوب الشباب أقل حيوية وأكثر فتورا ، وهو قول كثيراً ما لا يكون

صحيحا ، والواقع أن تظاهرهم بعدم الاكتراث لا يعنى الفتور وإنما يعنى أن نفوسهم تكون ملكا للعواطف والآمال والرغبات والأفكار التى يتمسكون بها . وعندما يبلى الجسد وتخلو الحياة من مطامعها ، تعود الأحاسيس المجردة من الشهوات إلى الظهور من جديد . ولقد كان أوليفيه مشغولا بكثير من هذه الأشياء الصغيرة ، كان أهم تلك المشاكل عنده حب صغير لا معنى له . وكان دائم الإنشغال بأمثال هذه العاطفة التى تملك عليه نفسه فتحوله إلى أعمى وتحول بينه وبين كل شىء آخر فى الحياة . ولم تكن انطوانيت تعلم شيئاً مما يدور بخلد أوليفييه . كل ما لاحظته أن أخاها بدأ يبتعد عنها ، ولم يكن هو مسئولا كل المسئولية عن ذلك . فأحياناً — بينما يكون فى طريقه إلى زيارة أخته — كان يشعر بشوق شديد إلى أن يراها ويتحدث إليها ، ولكنه كان — بمجرد أن يدخل للقائها — يشعر بالبرودة تسرى إليه . أن الحب القلق ، والحرارة التى كانت تدفعها إلى التعلق به وإلى امتصاص كلماته وإلى أن تغمره بعنايتها ... ثم أن إفراطها فى العاطفة ، واهتمامها الزائد بأمره ، كل هذه الأشياء سرعان ما كانت تفقده كل رغبة فى الإفضاء بما فى نفسه . وكان يجب عليه أن يفهم أن انطوانيت لم تكن فى حالتها الطبيعيه ، ولم يكن هناك شىء أبعد من هذا السلوك عن رزانتها ورقتها المعتادة ، إلا أنه لم يفكر فى ذلك أبدا . كان يقابل أسئلة أخته بنعم أو لا ، وكان يقاوم فى عناد كلما حاولت أن تخرجه من صمته ، بل أنه كان يجرحها بإجاباته القاطعة ، فتلوذ بالصمت وهى تشعر بالحسرة

فى قرارة نفسها ، ويمر يومها . . إنه يوم آخر يضيع منهما . وما يكاد أوليفييه يغادر البيت ليعود إلى المدرسة حتى يشعر بضميره يؤنبه بسلوكه مع أخته . وفى الليل كان يتعذب عندما يفكر فيما أحدثه لها من ألم ، بل كان يحدث — بمجرد عودته إلى المدرسة — أن يشرع فى كتابة رسالة تفيض عاطفية ولكنه كان يمزقها بمجرد أن يعود لقراءتها فى اليوم التالى . أما انطوانيت فلم تكن تعلم من ذلك شيئاً . . كانت تعتقد أن أخاها لم يعد يحبها .

ومرة أخرى حدث لانطوانيت أن شعرت بآخر بادرة من عواطف الشباب — وإن لم تكن تلك آخر فرصة لها — ونهض قلبها فى يقظة يائسة ، يقظة عاطفة قوية من الحب والأمل فى السعادة . وعلى أى حال فإن عقلها كان يرفض ذلك لأنه يختلف مع طبيعتها الهادئة كل الاختلاف . وكان لا بد لها — لكى تمر بهذه التجربة العاطفية — من هذا الاضطراب الذى تعيش فيه وهذه الحالة من الذهول والإثارة التى تنذر بوقوع الشر .

وذهبت انطوانيت مرة مع أخيها لحضور إحدى حفلات شاتليه الموسيقية ، ولما كانت إحدى المجلات الصغيرة قد كلفت أوليفييه بعمل النقد الموسيقى للمجلة ، فقد أجلس هو وأخته فى أماكن أحسن من التى كانا يجلسان فيها من قبل ، وإن كان الجمهور حولهما أشد سخافة من الجمهور الأول ، أجلسا على كرسيين بالقرب من المسرح . وكان على « كريستوف كرافت » أن يعزف فى تلك الليلة . ما كانا يعرفان هذا الموسيقار الألمانى وما أن بدا أمام عينى انطوانيت ، حتى شعرت بالدماء تتدفق إلى قلبها ، وبالرغم من أن عينيها المتعبتين لم ترياه إلا من خلال غلالة من الضباب فلم يكن لديها أدنى شك ، فمجرد دخوله عرفت فيه الصديق المجهول ، صديق أيامها التعسة فى ألمانيا : لم تكن قد تحدثت

عنه أبدا إلى أخيها فقد كانت تجد صعوبة فى أن تتحدث عنه حتى إلى نفسها . ومنذ ذلك الوقت ومشاغل الحياة تحتل كل تفكيرها . ثم أنها كانت من ذلك النوع من الفرنسيات الصغيرات العاقلات اللاتى يرفضن العواطف الغامضة التى لا يعرفن مصدرها والتى لامستقبل لها . وكان لها فى أعماق حياتها الروحية المجهولة مخبأ ؛ رقدت فيه عواطف أخرى كثيرة ربما خجلت من رؤيتها ، كانت تعلم جيداً أنها موجودة ولكنها كانت تحول نظرها عنها نتيجة لخوفها الدينى من هذا الخالق المجهول الذى لا يمكن للتفكير البشرى أن يحيط به .

ولما أفاقت قليلا من اضطرابها استعارت من أخيها منظاره لتشاهد كريستوف . كانت ترى وجهه من ناحية جانبيه وهو واقف فى مكان قيادة الأوركستر وعرفت تعبيرات وجهه الفنية المركزة . كان يرتدى ملابس قديمة لا تناسبه إطلاقا . وتابعت انطوانيت وكأنما تجمدت فى صمتها ، تابعت مشاهدة تطورات هذه الحفلة الموسيقية التى تستحق الرثاء والتى عرض كريستوف فيها نفسه للاحتكاك بجمهور أساء استقباله إساءة ساخرة ، هذا الجمهور الذى لم يكن معداً لهؤلاء الفنانين الألمان . ولذلك فقد أجهزت عليه موسيقى كريستوف . بعد أن عزف إحدى السمفونيات التى بدت طويلة عاد فظهر ليعزف بعض الألحان على البيانو ، وهنا قوطع بعبارات من الاستهجان لم تدع مجالا للشك فى عدم ارتياح الجمهور لرؤيته مرة أخرى ، ومع ذلك فقد بدأ العزف

أمام الجمهور المتضايق الذى لا حول له وبدأت الملاحظات الجارحة تسرى بين جمهور المقاعد الخلفية فتنشر المرح فى الصالة. وهنا توقف كريستوف عن عزفه وفى عناد الشباب الذى لا يبالى بالخطأ أخذ يعزف بأصبع واحدة لحن أغنية (ما لبروغ ذاهب إلى الحرب) [١].
ثم غادر البيانو ليقول للجمهور: هذا ما . . . يناسبكم . . !

ومرت لحظة على الجمهور لم يدرك فيها مقصد كريستوف لأول وهلة، ثم انطلقت الصرخات وتلا ذلك مشهد لا يمكن تصوره من الضجيج والصفير. وأخذ الكل يصيح ويصرخ: —

— يجب أن يعتذر ! . . هاتوه ليعتذر ! . .

وغلت الدماء فى وجوه الناس وهم يستثيرون بعضهم، وبدأوا يقتنعون بأنهم أهينوا حقا وربما كانوا مقتنعين بذلك، إلا أنهم انتهزوا الفرصة ليتمادوا فى إحداث الضجيج كما يفعل تلاميذ المدارس بعد أن يمضوا ساعتين فى الفصول.

ولم تكن انطوانيت تملك القوة لتتحرك، كانت كالمذهولة، وتقلصت أصابعها على قفازها فمزقته بحركة خفية. فمنذ بدأت الأنغام الأولى للسمفونيه تنبأت بما سيحدث، كانت تتوقع من الجماهير هذا العداء الصامت وتشعر به وهو ينمو شيئاً فشيئا . . وكانت تقرأ على وجه كريستوف أنه لن يذهب بلحنه إلى النهاية دون أن يحدث

---

(١) أغنية شعبية فرنسية.

انفجار ما . وانتظرت هذا الانفجار وهى تشعر بالاضطراب المتزايد ، وأخذت تجمع قواها لتمنع هذا الانفجار لكنه وقع وحدث بالضبط كما كانت تتوقعه . فشعرت معه بأن يد القدر تسحقها فلا تستطيع لها ردا . وبينما هى لا تكف عن النظر إلى كريستوف الذى يحملق بتحد فى الجماهير الثائرة التقت نظراتهما . ومن الجائز أن كريستوف قد عرفها بعينه إلا أنه لم يستطع أن يتوقف عليها بذهنه وسط العاصفة الهائجة (فهو لم يعد يفكر فيها) واختفى وسط سيل من الصفير .

وودت لو تصرخ ، لو تقول أى شىء لكنها كانت تشعر بأنها مقيدة كما لو كانت فى كابوس . وخفف من ألمها أن سمعت صوت أخيها الذى لم يدرك ما كان يدور داخل نفسها والذى شاركها ألمها واحتقارها للجماهير . كان أوليفييه موسيقيا أصيلا ذا ذوق حر لم يستطع شىء أن ينال منه ، فهو إذا أحب شيئاً أحبه حتى لو خالفه الناس جميعا . وما كاد يسمع النغمات الأولى من السمفونية حتى أدرك أن هناك شيئاً عظيما لم تألفه حياته أبداً من قبل . وأخذ يردد بصوت خافت ولكن بحرارة بالغة :

— كم هى رائعة هذه الموسيقى ، كم هى رائعة .

بينما أخته تقترب منه بطريقة لا إرادية كأنما لتشكره على ما يبديه

من ملاحظات، وما كادت السمفونية تاتى على آخرها حتى أخذ أوليفييه يصفق تصفيقاً حاداً احتجاجاً على عدم اكتراث الجماهير وسخريتهم.

ولما حدثت الضجة الكبرى خرج أوليفييه عن شعوره وهب هذا الشاب الخجول واقفا وأخذ يصرخ معلناً أن كريستوف على حق وأخذ يخاطب فى عنف الذين يطلقون الصفير كأنما يريد أن يتشاجر معهم . ولكن صوته ضاع وسط الضجيج . وهكذا جعل الناس يردون عليه بألفاظ بذيئة ووصفوه بالحمق ونصحوه بأن يذهب لينام . ولما كانت انطوانيت تعلم ألا جدوى من تمرد شقيقها على الجمهور فقد شدت أوليفييه من ذراعه وهى تقول :

— أسكت أرجوك . . . أسكت .

فعاد إلى الجلوس يائساً ، وهو ما زال يزمجر قائلا :

— ياللعار . . . . ياللعار . . . . يا للمساكين .

أما هى فلم تقل شيئا . . كانت تتألم فى صمت حتى ظن أوليفييه أنها لا تشعر بجمال هذه الموسيقى . فقال لها :

— انطوانيت ، ألا تجدين أنت أن هذه الموسيقى جميلة ؟ .

وأومأت برأسها أن نعم . وظلت جامدة لم تستطع أن تعود

إلى طبيعتها ، ولكن عندما شرعت الأوركستر فى عزف مقطوعة أخرى ، قامت فجأة من مكانها وهى تهمس لأخيها برنة لا تخلو من الكراهية .

— هيا ، هيا ، إنى لم أعد أستطع رؤية هؤلاء الناس .

وغادرا المكان مسرعين . وفى الطريق كان أوليفييه يتأبط ذراع أخته وهو يتكلم بحدة ، أما أنطوانيت فسارت صامتة .

وقضت انطوانيت الأيام التاليةوحيدة فى غرفتها . وألقت بنفسها فى عاطفة كانت تحاول أن تتجنبها ، إلا أنها كانت تلح عليها من خلال أفكارها جميعا كأنها طرقات الدماء تدق رأسها فتحدث لها الألم .

ومضت فترة أتاها أوليفييه بعدها بكتيب يحتوى على مجموعة من ألحان كريستوف اكتشفه أخيراً عند أحد الناشرين . وفتحته مصادفة وما كاد بصرها يقع على أول صحيفة منه حتى وجدت نفسها تقرأ على رأس إحدى المقطوعات إهداء مكتوباً بالألمانية :

« إلى ضحيتى الصغيرة الحبيبة المسكينة » .

وذيل هذا الإهـــداء بتاريخ .

كانت انطوانيت تعرف جيداً هذا التاريخ — وهنا اضطربت لدرجةلم تستطع معها أن تواصل القراءة . وتركت الكتيب ثم انصرفت إلى غرفتها بعد أن توسلت إلى أخيها أن يقوم بالعزف على البيانو . وأغلقت عليها باب غرفتها وبدأ أوليفييه ، الذى استهوته هذه الموسيقى الجديدة ، بدأ يعزف دون أن يلاحظ التأثر الذى طرأ على أخته . وجلست انطوانيت فى غرفتها المجاورة لغرفة أوليفييه تحاول أن تسيطر على ضربات قلبها وفجأة قامت من مكانها وأخذت تفتش فى دولاب ملابسها عن دفتر صغير كانت تقيد فيه مصروفاتها وبحثت عن تاريخ

مغادرتها لألمانيا لتقارنه بهذا التاريخ الغامض . لقد كانت تعرفه من قبل . نعم ، كان ذلك ليلة العرض التى حضرتها مع كريستوف .
واستلقت على سريرها وأغمضت عينيها وقد شعرت بشيء من الخجل ، وضغطت بيدها على صدرها وأخذت تستمع إلى الموسيقى الحبيبة . كان قلبها ينبض بالعرفان .. ولكن مالها تشعر بهذه الآلام فى رأسها ! ؟

ولما رأى أوليفييه أن أخته لزمت غرفتها انتهى من عزفه ودخل إليها ليجدها مستلقية على سريرها . وسألها إن كان هناك شيء يؤلمها فأجابت أنه مجرد تعب بسيط ثم قامت لتجلس معه . وأخذا يتحدثان إلا أن انطوانيت لم تجب بسرعة على أسئلة أخيها . كانت كأنما تعود من مكان بعيد، ثم ابتسمت وبدت عليها حمرة الخجل واعتذرت بأن صداعا شديداً يكاد يحطم رأسها ، وأخيرا خرج أوليفيه ، وقد طلبت منه أن يترك لها دفتر الألحان . وظلت طويلا فى الليل بمفردها جالسة على البيانو تقرأ الألحان دون عزفها ، تلمس فى خفة بين حين وحين أحد أصابع البيانو فى هدوء شديد، خشية إزعاج جيرانها وتذمرهم ، ولم تقرأ طويلا بل استمرت أغلب الوقت يتملكها دافع عرفان الجميل والحنان لهذه النفس التى عطفت عليها فقد قرأ فى نفسها بما لطيبة القلب من إدراك عجيب خفى ، ولم تستطع انطوانيت أن تركز أفكارها . وكانت تشعر بالسعادة والبؤس فى آن واحد . بائسة .. آه ! كم كانت يؤلمها صداع رأسها ! . .

وقضت ليلتها وسط أحلام مؤلمة وكآبة مضنية . وفى الصباح أرادت أن تخرج قليلا لكى تقاوم حالة الخود التى تملكتها ، ولكى تجعل لخروجها هدفاً ، ذهبت — رغم استمرار الآلام فى رأسها — لبعض المشتروات من أحد المحال الكبيرة ولم تكن تفكر قط فيما تفعل . كانت تفكر فى كريستوف دون أن تعترف لنفسها بذلك، وبينما هى خارجة وسط الإزدحام ، متعبة وتكاد تموت حزناً ، رأت كريستوف يمر على الرصيف على الجانب الآخر من الشارع . وهنا رآها كريستوف فى نفس اللحظة . وفى الحال (ودون تفكير) مدت انطوانيت يدها إليه ، وتوقف كريستوف عن السير . فقد عرفها هذه المرة ، وبينما هو يندفع وسط الطريق ليتجه نحو انطوانيت ، بينما هى تحاول أن تذهب للقائه إذا بأفواج الناس المتزاحمة تتقاذفها فى عنف كما لو كانت عوداً من القش . ويعترض الطريق حصان يجر سيارة ركاب، يسقط على الشارع المزلق فيقيم سداً أمام كريستوف تجمعت عنده فى الحال صفين من العربات محدثة لبضع لحظات حاجزاً لا يمكن اختراقه . ورغم ذلك كله صمم كريستوف أن يمر، ولكنه وجد نفسه وسط العربات لا يمكنه التقدم أو التراجع وعندما نجح أخيرا فى التخلص من هذا الازدحام وفى الوصول إلى المكان الذى كان قد رأى فيه انطوانيت ، كانت الفتاة قد ابتعدت كثيرا . فقد حاولت عبثاً أن تقاوم هذا السيل البشرى ، ثم استسلمت لأمرها ولم تحاول الجهاد بعد .

فقد انتابها الشعور بأن هناك قدر جاثم عليها يعارض مقابلتها مع كريستوف ، وما من قوة تستطيع شيئاً أمام القدر . ولما نجحت فى الخروج من وسط الجموع لم تحاول أن تعود أدراجها . فقد تملكها الخجل . ماذا تجرؤ أن تقوله له ؟ وماذا جسرت أن تفعل ؟ وما عساه ظن بها ؟ وعندئذ فرت عائدة إلى منزلها .

ولم تشعر بالطمأنينة حتى وصلت إلى دارها . ولكن عندمادخلت حجرتها ظلت جالسة فى الظلام أمام المنضدة دون أن تقوى على خلع قبعتها وقفازها . كانت بائسة لأنها لم تستطع التحدث إليه وفى الآن نفسه كان هناك ضوء ينير قلبها فلم تعد ترى الظلام ، ولم تشعر بالألم الذى كانت تعانيه . واستمرت تستعيد فى خيالها كل تفاصيل هذا المشهد الذى وقع ، وتغيره ، فتتخيل ما كان يحدث لو أن الظروف تغيرت . وترى نفسها وهى تمد ذراعها لكريستوف ، ثم ترى عبارات الفرح ترتسم على وجه كريستوف عندما تعرف عليها فتضحك وتحمر خجلا . تحمر خجلا ، وفى ظلام الحجرة حيث لا يمكن لأحد أن يراها وهى وحدها مدت إليه ذراعها مرة أخرى . آه ! إن هذا الشعور كان أقوى منها ، كانت تشعر أنها راحلة ، فتحاول ، بالغريزة ، أن تتعلق بهذه الحياة القوية التى تحف بها . والتى بعثت إليها بنظرة تملؤها المحبة . أما قلبها الملىء بالحنان والفزع فكان يناديه فى الليل بقوله :

— أنجدنى ! أنقذنى !

وقامت انطوانيت لتشعل المصباح ولتأخذ ورقة وقلماً ، وكتبت لكريستوف . ولم تكن لتفكر أبداً هذه الفتاة الخجول المترفعة أن تكتب إليه لولا أنها كانت فريسة للمرض . ولم تكن تدرك ماتكتبه . إذ أنها قد فقدت السيطرة على نفسها فكانت تناديه وتبوح له بحبها ، ولكنها توقفت وسط الخطاب مفزعة وأرادت أن تعيد كتابة الخطاب ، ولكن مجهودها قد تحطم وكان رأسها خاوياً ، مرتفع الحرارة . ووجدت صعوبة هائلة فى إيجاد الكلمات إذ أن التعب كان يضنيها . وكانت خجولة ... ثم مافائدة كل هذا ؟ فهى تعلم جيداً أنها تغش نفسها وأنها لن ترسل هذا الخطاب أبدا . . . حتى لو أنها أرادت فكيف توصله إليه ، فهى لا تعرف عنوان كريستوف ! وماذا يمكنه أن يعمل لها حتى إذا علم بكل شىء ورغم ما يكنه من طيبة نحوها ؟ قد فات الأوان ! لا ، لا ، إن كل ذلك عبث ، إنها محاولة أخيرة لطير يختنق ويخفق بجناحيه فى جنون .. عليها أن تستسلم . . .

وظلت طويلا أمام منضدتها مستغرقة فى أفكارها غير قادرة أن تنتزع نفسها من سكونها . وكان الليل قد انتصف عندما قامت بعناء وبشجاعة ، ووضعت ، كما تعودت دائماً ، مسودة خطابها داخل كتاب فى مكتبتها الصغيرة ، إذ لم تقو على ترتيبها أو تمزيقها . ونامت وهى ترتعد من الحمى .

إن سر هذه المحاولة بدأ ينكشف ، وشعرت انطوانيت أن إرادة الرب تتم . وإذا براحة كبيرة تغمرها .

وعاد أوليفييه من المدرسة صبيحة يوم الأحد ليجد انطوانيت طريحة الفراش وقد بدأ عليها شيء من الهذيان . وجاء الطبيب فقرر أنها أصيبت بذبحة صدرية حادة .

وكانت انطوانيت فى الأيام السابقة قد بدأت تدرك مدى خطورة هذه الحالة ، واكتشفت أخيرا سبب ذلك الاضطراب المعنوى الذى كان يلامها ، كانت المسكينة تخجل من نفسها ، لما يمر بها من هواجس ، لكنها شعرت بارتياح عندما أدركت أن المرض هو الذى سبب لها تلك الاضطرابات النفسية ووجدت أن لديها المقدرة على اتخاذ بعض الاحتياطات ، فأشعلت النار فى أوراقها وكتبت رسالة لمدام ناتان ترجوها فيها أن تقبل الإشراف على أخيها فى الأسابيع الأولى بعد موتها . (وهذه الكلمة لم تجرؤ على كتابتها) .

وعجز الطبيب أن يفعل شيئا ، فالمرض كان بالغ الخطورة ، وسنوات التعب الطويلة كانت قد أنهكت قواها — إلا أنها ظلت هادئة ، فمنذ شعرت أنها تقترب من النهاية تخلصت من مخاوفها ، وأخذت تستعرض فى ذاكرتها كل التجارب التى مرت بها وتستعيد فى نفسها كيف أتمت رسالتها وكيف أنقذت حبيبها أوليفييه وكان يغمرها حينئذ نوع من السرور لا يوصف . لقد كانت تحدث نفسها :

— أنا التى صنعت هذا .

ثم تعود فتلوم نفسها ، إذ تشعر بشىء من الكبرياء فتقول :

— لو كنت وحدى لما استطعت شيئاً أبدا ، إن الله كان معى .

وتشكر الله الذى منحها الحياة حتى تمت مهمتها . وكان قلبها ينقبض لشعورها بأن عليها أن ترحل ، لكنها لا تجرؤ على التذمر خشية أن تبدو ناكرة للجميل أمام خالقها الذى كان فى استطاعته أن يصطفيها إلى جواره قبل ذلك بكثير . ترى ماذا كان يمكن أن يحدث لو أنها رحلت منذ عام مضى ؟

وتنهدت عندما تذكرت ذلك ، وخضعت لإرادة الله شاكرة جميله .

وبالرغم من الضيق الذى كان يعتريها لم تكن تشكوا أبداً إلا حينما تستغرق فى نوم عميق تئن خلاله كطفل صغير . كانت تنظر إلى الناس والأشياء بابتسامة مستسلمة وكانت مجرد رؤيتها لأوليفييه تسبب لها فرحا دائماً . كانت تحرك شفتيها وهى تناديه دون أن تنطق باسمه . وتطلب منه أن يضع رأسه بجانبها على الوسادة وتثبت عينيها فى عينيه ، وتنظر إليه طويلا فى صمت ، وأخيرا كانت تقوم لتضع رأسه بين يديها وتقول له :

— آه يا أوليفيه ! ... أوليفيه ! ...

وتنتزع من حول جيدها سلسلة فى آخرها أيقونة وتطوق بها عنق

أخيها . وأوصت الجميع بأخيها خيرا . . قسيسها الذى تعترف له ، وطبيبها ، وكل من تعرفه . كان واضحاً أنها لم تعد تعيش إلا من خلال حياة أخيها وأنها — وهى على وشك الموت — كانت تلجأ إلى هذه الحياة ، كما لو كانت آخر جزيرة تأوى إليها . وكانت تأخذها أحياناً نشوة صوفية من الإيمان والحنان ، فلا تعود تشعر بآلامها ويتحول الحزن لديها إلى سرور ، سرور إلهى كان يظهر كالنور فى عينيها وعلى فمها وهى تردد قائلة :

— أنا سـعيدة .

ويسيطر عليها نوع من الفتور . كانت فى لحظاتها الأخيرة قبل أن تفقد وعيها — تحرك شفتيها فيعرف أنها كانت تتلو شيئا . ويقترب أوليفيه من فراشها ويميل نحوها . كانت ماتزال تعرفه ، فتبتسم له ابتسامة خفيفة وتظل شفتاها تتحركان بينما عيناها مغرورقتان بالدموع ، وحينئذ لا يستطيع أحد أن يسمع ما تريد أن تقول ، ولكن أوليفيه يستطيع أن يلتقط من فمها همسا لكلمات أغنية قديمة طالما أحبها ، وطالما غنتها هى له .

« ساعود أيها المحبوب ، سأعود . . . . »

وهنا عاد إليها إغماؤها . . . . رحلت .

كانت انطوانيت — دون أن تدرى — قد أنشأت مع الكثيرين من الغرباء صلة من الود العميق ، وهذا حدث لها فى المنزل الذى كانت تسكنه على الرغم من جهلها مجرد أسماء جيرانها فيه . وهكذا تلقى أوليفيه من أناس لا يعرفهم كثيرا من دلائل المواساة . ولم يكن موكب جنازة انطوانيت مهجورا كما حدث لجنازة أمها . بل تبعها كثيرون إلى مقرها الأخير ، كانوا من الأصدقاء أو من زملاء أوليفيه أو من الأسر التى عرفتها انطوانيت عن طريق إعطاء الدروس ، أو كانوا مجرد أناس مرت بهم صامتة دون أن تخبرهم هى بشىء عن حياتها ودون أن يحاولوا هم أن يعرفوا شيئا ، وإن كانوا معجبين سرا بثقافتها . وشيعها كذلك بعض الفقراء ، والخدم الذين كانت تقوم بمساعدتهم ، وبعض صغار التجار فى الحى . أما أوليفيه فقد اصطحبته مدام ناتان ليلة وفاة أخته — رغماً منه — إلى منزلها . وبهذا انتزعته عنوة من بين أحزانه .

كانت تلك هى الفترة الوحيدة فى حياته التى يستطيع فيها أن يقاوم مصيبة كهذه الفترة الوحيدة التى لم يسمح له فيها بأن يستسلم ليأسه استسلاماً كاملا . كان أوليفيه قد بدأ صفحة جديدة من حياته وبالرغم من مصيبته فقد سار مع التيار كواحد من أفراد مجتمعه الصغير . كانت أعماله ومشاغل مدرسته وحمى تفكيره الذهنى ونضاله من أجل الحياة ،

كل هاتيك كانت تمنعه من أن ينطوى على نفسه ، لم يكن يستطيع الانفراد بنفسه ، كان ذلك يؤلمه ولكن كان فيه إنقاذ له . ولو كان موت انطوانيت قد حدث قبل ذلك العام أو بعده بأعوام لكان فيه نهاية أوليفيه .

ومع ذلك فقد اختلى بنفسه مع ذكرى أخته ما استطاع وتألم لأنه لم يستطع الاحتفاظ بالمسكن الذى عاش فيه مع شقيقته فلم يكن يملك من المال ما يسمح له بذلك . وكان يأمل من الذين يبدون اهتمامهم به أن يقدروا مبلغ حزنه ، لأنه لا يستطيع الإبقاء على ما يختص بشقيقته ، ولكن أحدا لم يكن ليقدر موقفه ، واستأجر غرفة سطح من مال استدان بعضه وجمع البعض الآخر من إعطاء الدروس . وفى هذه الغرفة كدس كل ما استطاع الاحتفاظ به من أساس أخته : سريرها ، طاولتها ، المقعد الكبير الذى كانت تجلس عليه . وجعل من ذكرياته محراباً كان يلجأ إليه كلما اشتد الحزن به . وظن أصدقاؤه أنه على علاقة غرامية على حين أنه كان يمكث فى غرفته ساعات طويلة . وقد احتوى رأسه بين يديه وهو يحلم بأخته فقد كان من سوء حظه ، ألا يكون لديه أية صورة لها ، إلا صورة فوتوغرافية صغيرة وهى فى سن الطفولة ، أخذت لها وهى بجانبه . كان أوليفيه يتحدث إلى الصورة ويبكى . . أين صاحبتها الآن ؟ آه . ! حتى لو كان فى الطرف الآخر من الدنيا ، أينما كان مكانها ومهما كان الوصول إليها صعبا ، فكم كان

يسعده أن ينطلق باحثا عنها بحماس لا يقهر ، مهما كلفه السعى فى سبيلها ، حينئذ يكون على استعداد لأن يسير حافى القدمين مئات من السنين ، إذا كانت كل خطوة تقربه من شقيقته ! .. نعم كان على استعداد لذلك ولو كان أمله فى الوصول إلى أخته ضعيفاً إلى حد بعيد ! لكن لا أمل .. فلم تكن هناك وسيلة للوصول إليها أبدا . . يا للوحدة التى أصبح يعيش فيها . . وماله أصبح عديم الحيلة هكذا كالطفل الصغير تلعب به أمواج الحياة ، الآن بعد أن لم تعد له أخت تحبه وتنصحه وتواسيه . إن من يشاء له الحظ ، ولو مرة فى الحياة ، أن يعرف إلفة قلب صديق ، إلفة تامة لا حدود لها فقد عرف أسمى سعادة فى الحياة ، إلا أنها سعادة ستجعله يعيش طيلة عمره شقيا .

وليس هناك أقسى على النفس من أن يتذكر الإنسان — وهو فى غمرة شقائه — أياماً سعيدة مرت به . . وأكبر كارثة بالنسبة للنفوس الضعيفة الرقيقة أن تكون قد عرفت السعادة الكاملة مرة فى حياتها ، ولكن مهما يكن الألم الذى يفجع الإنسان وهو فى مقتبل عمره فى عزيز لديه ، فإن ذلك يكون أخف وقعاً على النفس مما لو حدث فى سن متأخرة بعد أن تكون الحياة قد نضب معينها . كان أوليفيه ما يزال صغيرا ، وبالرغم من ميله الفطرى إلى التشاؤم وبالرغم من سوء الحظ الذى لازمه ، فقد كان فى حاجة إلى أن يعش . ويبدو أن انطوانيت وهى تودع الحياة قد بثت شيئاً من روحها فى نفس

أخيها . أما أوليفيه فقد آمن بهذه الحقيقة ، وهو وإن لم يكن مؤمناً بالله كشقيقته إلا أنه كان يشعر شعوراً عاماً بأن أخته لم تمت تماماً وإنما انتقلت حياتها إليه كما وعدت هى بذلك . هناك اعتقاد يسود مقاطعة « بريتانيا » بأن الذين يموتون فى الشباب لا يموتون ، وإنما يظلون محلقين حيث كانوا يعيشون حتى تنقضى المدة التى كان ينبغى أن يعيشوها . وهكذا ظلت انطوانيت تعيش وتنمو إلى جانب أوليفيه .

وأخذ أوليفيه يقرأ ما تبقى من الأوراق التى تركتها أخته . فقد شاء سوء الحظ أن تكون قد أحرقت معظم ما كان لديها من أوراق . ومع ذلك فلم تكن انطوانيت من أولئك اللاتى تعودن تسجيل مشاعرهم الشخصية ، بل كانت تحمر خجلا إذا حدث أن كشف الناس عن أفكارها . ولم يكن لديها سوى دفتر صغير للمذكرات التى كان من الصعب على غيرها أن يفهم ماجاء به من رموز . أجندة صغيرة دونت فيها — دون تفسيرها — بعض التواريخ وبعض الأحداث اليومية الصغيرة التى أدخلت عليها السرور وأثارت مشاعرها ، ولم تكن انطوانيت فى حاجة إلى تدوين تلك المشاعر تفصيلا حتى تتيح لنفسها الفرصة لكى تعيشها مرة أخرى . وأما معظم هذه التواريخ فكان يعود إلى أحداث من حياة أوليفيه ، كانت انطوانيت قد احتفظت بكل رسائله دون أن تفقد واحدة منها . . . ولكن — وأسفاه كان أوليفيه أقل منها اهتماماً بحفظ الرسائل ، فأضاع معظم ما وصله منها .

وفيم كانت تنفعه الرسائل ، ألم يكن يعتقد بأنه سيحتفظ بأخته إلى الأبد ؟ لقد كان يخيل إليه أن هذا النبع الحبيب من الحنان لا ينضب ، وظن أنه يستطيع دائماً أن يروى ظمأ شفتيه وقلبه من هذا النبع إلا أنه كان عديم التبصر فلم يحافظ على مامنحته أخته من حب ، وأصبح الآن يتمنى لو يحصل على قطرات صغيرة منه . . . وكم تأثر عندما عثر بين صفحات من كتاب من كتب الشعر كان ملكا لأخته ، على هذه الكلمات مكتوبة على ورقة بالية :

ـــ أوليفيه . . يا أوليفيه الحبيب ! . .

كاد أن يغمى عليه وأخذ ينتحب وهو يضبط بشفتيه على شفتى أخته اللتين لا يراهما إلا فى الخيال . كانتا تتحدثان إليه فى العالم الآخر . ومنذ ذلك الحين وهو يبحث فى كتبها لعلها أن تكون قد أودعتها سرا آخر . وعثر على مسودة رسالة منها لكريستوف وعلم حينئذ القصة الصامتة التى كانت بدأت تنمو لدى أخته . واستطاع لأول مرة أن يقتحم حياة أخته العاطفية التى كان يجهلها والتى لم يحاول من قبل معرفتها ، وتذكر الأيام القلقة التى عاشتها انطوانيت بعد أن هجرها هو ، حين كانت تمد ذراعها نحو الصديق المجهول . ولم تكن قد صرحت له أبدا بأنها سبق أن التقت بكريستوف ، إلا أنه اكتشف من بعض سطور الرسالة أنهما التقيا فعلا منذ عهد قريب فى ألمانيا ، وفهم أن كريستوف عامل انطوانيت معاملة كريمة فى إحدى المناسبات التى لم يعرف أوليفيه

تفاصيلها ، ومن هنا نشأت عاطفة انطوانيت نحو كريستوف وظلت محتفظة بسرها حتى النهاية .

وكان أوليفيه يحب كريستوف من أجل فنه فحسب ، ثم فجأة أصبح حبه له مشخصا ، حباً لا يوصف ، ألم تكن انطوانيت تحبه . لقد خيل إلى أوليفيه أنه بحبه لكريستوف إنما يحب أخته وحاول أن يتقرب منه ولكن لم يكن من السهل عليه أن يقتفى أثره ، فقد اختفى كريستوف من باريس الهائلة بعد فشله فى حفلة موسيقية كان قد أقامها واعتزل الناس جميعا ولم يعد أحد يهتم به .

ومرت شهور . وشاءت الصدفة أن يلتقى أوليفيه بكريستوف فى الطريق . كان كريستوف أصفر الوجه قد أهزله المرض الذى لم يشف منه إلا أخيرا ، إلا أن أوليفيه لم يجد فى نفسه الشجاعة الكافية ليستوقفه فتبعه حتى منزله . ثم فكر فى أن يكتب إليه إلا أنه لم يستطع تنفيذ ذلك . . .

ماذا يكتب إليه ، وهل كان أوليفيه وحيدا ؟ كانت أخته إلى جانبه . إن حبها وطهرها كانا قد انتقلا إليه . ومجرد التفكير أن أخته أحبت كريستوف كان يجعله يحمر خجلا أمامه كما لو كان هو انطوانيت ،

ومع ذلك كم كان يود لو تحدث إليه عنها .. لكنه لم يستطع ... كان سرها يلجم لسانه .

كان أوليفيه يحاول أن يلتقى بكريستوف ويذهب إليه فى كل مكان يمكن أن يجده فيه ، وكان يشتعل رغبة فى أن يمد إليه يده مصافحا ، ولكن ما أن يلمحه حتى يتوارى منه خشية أن يراه .

وأخيرا — ذات مساء — وكان ذلك فى صالون لأحد الأصدقاء انتبه إليه كريستوف . وكان أوليفييه يقف بعيدا دون أن يقول شيئا إلا أنه كان يراقبه ولا شك . إن انطوانيت كانت مع أوليفييه فى تلك الليلة ، فقد رآها كريستوف فى عينى أخيها ، وكانت الصورة التى انبعثت فجأة هى التى جعلته يخترق الصالون ليتجه مباشرة نحو الرسول المجهول الذى يحمل إليه — كأنه هرم إله الفضاء — تحية حزينة رقيقة من الروح التى ذهبت إلى عالم السعادة .

ملاحظــــة

لكل كتاب رقمان : الأول ، الرقم الأول العام ، ويدل رقم الكتاب فى السلسلة وهو مكتوب على الصفحات الأولى ، وعلى كعب الكتاب ، بين اسم الكتاب واسم المؤلف :

والثانى : الرقم الخاص — ويدل على رقم الكتاب من حيث الموضوع وهو مكتوب على الغلاف عند أسفل الكعب .

صدر من كتب الأدب

من مجموعة الألف كتاب

(أدب عام ، تاريخ الأدب ، نقد ، شعر ، قصص) .

---

١ — كفاح	تأليف جالسورثى
٢ — كفاح الأحرار	» أفلارتى
٣ — الأحمر والأسود (جزءان)	» ستاندال
٤ — الحاج مراد	» تولستوى
٥ — منزل الأموات	» دستوفسكى
٦ — عذراء اللورين	» مكسويل أندرسون
٧ — أساطير من الأمم المتحدة	» فرانسيس فروست
٨ — الأدب المقارن	» م . ف . جويار
٩ — القوة والمجد	» جراهام جرين
١٠ — توم سوير	» مارك توين
١١ — رحلة إلى الهند	» ا . م . فورستر
١٢ — أعلام الفن القصصى	» هـ . ل . توماس
١٣ — بين العمل والأمل	» چينى لى

١٤ — مكتب البريد	تأليف تاغور
١٥ — الأشباح	« هنريك إبسن
١٦ — مختارات من المسرحيات القصيرة	
١٧ — مختارات من القصص الإنجليزية القصيرة	
١٨ — تاريخ الأدب اليونانى للدكتور محمد صقر خفاجة	
١٩ — تاراس بوليا	تأليف جوجول
٢٠ — روايات وقصص من العهد الفرعونى	
٢١ — إيسوب	تأليف ا . د . وينتل
٢٢ — الزوجة الأولى	« بيرل بك
٢٣ — دنيا المصالح	« خسنتو بنفنتى
٢٤ — الرجل الذى لم يوجد	« أوين مونتاجو
٢٥ — مختارات من المسرحيات	«
٢٦ — نهاية السكير	« هانز فالادا
٢٧ — الجريمة والعقاب (جزءان)	« دستوفسكى
٢٨ — دون كخوته	« سرفانتس
٢٩ — الشعلة	«
٣٠ — رحلة العمر	« الصاغ كمال مشهور
٣١ — أشهر القصص الصينية	« لين يوتانج
٣٢ — دعاء الفجر	« حسين القبانى
٣٣ — هواية الحيوانات الزجاجية	

٣٤ — مختارات من جين دي موباسان
٣٥ — ديوان شعر على شوقى
٣٦ — هانز كرستيان أندرسون تأليف جودين رومر
٣٧ — قصة الجسر الغربى « محمود أحمد
٣٨ — قصة صرعى البؤس « أحمد محمد عيش
٣٩ — هكلبرى من « مارك توين
٤٠ — سيأتى الوقت « رومان رولاند
٤١ — نسيب مسيو پواريه
٤٢ — أنطوانيت « رومان رولاند

مطبوعات دار نهضة مصر فى مشروع الألف كتاب

علوم

قصة الطقس — طبيعيات الجو وظواهره
الكشف والفتح
الشمس (قصتها من البداية إلى النهاية)
التقاويم — شخصية الحيوان —

علوم انسانية

الانقلاب الصناعى فى إنجلترا
الحياة الناجحة — فى طلب التوابل
مرشد الآباء والأمهات
دراسات فى المغرب والأندلس
الجنس البشرى فى معرض الأحياء
الدولة
ستة من علماء الطبيعة

أدب

مختارات من القصص الانجليزية القصيرة
مسرحية الأشباح
مسرحية الشعلة
رحــلة العمــر
قصة أنطوانيت

فنون

الأشغال اليدوية
التصوير الشمسى
العلوم فى الحياة اليومية
اشغال النجارة المنزلية — تجارب كيميائية بسيطة
عمــل السجاد — هواية جمع طوابع البريد

اهداف هذه المجموعة

* تكوين مكتبة عربية متكاملة ، يجد القارىء العربى فيها كل ماهو بحاجة اليه من المعلومات فى شتى الموضوعات ، معروضة عرضا سهلا ، يتقبله القارىء العادى ، ويجد فيه المتخصص الحقائق والنظريات والآراء مبسوطة بغاية الدقة ، متمشية مع آخر ماوصل اليه العلم فى تلك الموضوعات .

* نشر هذه المكتبة فى أوسع نطاق ممكن ، وذلك بتخفيض السعر قدر الامكان ، واشراك أكبر عدد من الناشرين فى نشرها .

* النهوض بالكتاب العربى من حيث الشكل والموضوع .

* تشجيع عادة اقتناء الكتب وقراءتها .

* الافادة بصورة عملية من جهود العلماء والادباء فى شتى الأمم ، باتاحة الفرصة أمام القارىء العربى للاطلاع الواسع على ماعندهم .

* افساح المجال أمام الشباب الطامح الى الاشتغال بالعلم والأدب للمساهمة بصورة ايجابية فى النهضة العلمية والأدبية .

* تشجيع الناشرين فى مصر والدول الشقيقة على الاقبال على نشر كتب العلم والثقافة العالمية ، وتعويضهم تعويضا مجزيا .

* تجديد النشاط الفكرى فى العالم العربى عن طريق الكتب القيمة التى تحمل اليه العلم والمعرفة .

الثمن ١٤ ص

نشرته مكتبة نهضة مصر بالفجالة

